اقرأ ٥٠٤

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

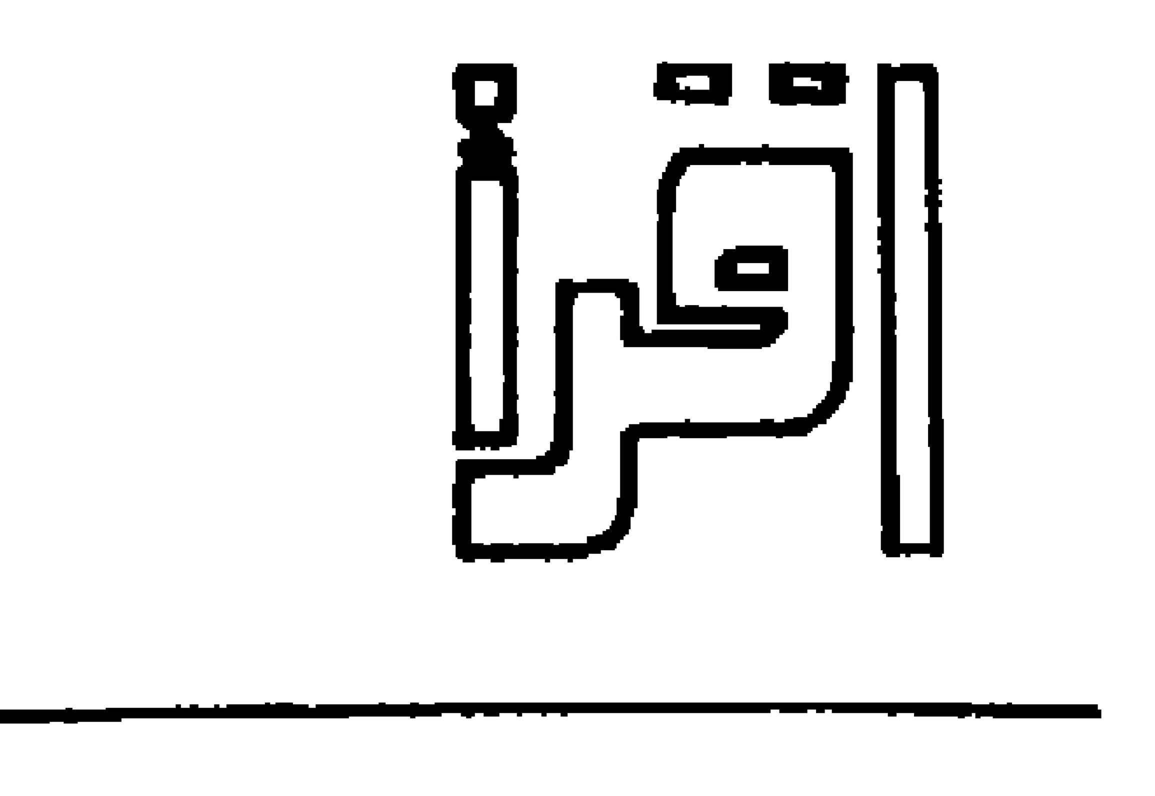
الدكتور محمد سيد طنطاوى

١

القصة فى القرآن الكريم

قصة آدم ونوح - عليهما السلام





[٥٦٠]

القصة في القرآن الكريم

قصة آدم ونوح - عليهما السلام

الدكتور محمد سيد طنطاوي

القصّة في القرآن الكريم

قصة آدم ونوح - عليهما السلام



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هـذه السلسلة ونشرهـا، لم يفكـروا إلا فى شىء واحد، هـو نشر الثقافـة من حيث هى ثقـافة، لا يـريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشعـوب العـربيـة. وأن ينتفعـوا، وأن تـدعـوهم هـذه القـراءة إلى الاستـزادة من الثقـافـة، والـطمـوح إلى حيـاة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طـه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن المتدبر للقرآن الكريم يرى أن القصة تشغل جانبًا كبيرًا من آياته وسوره، ولاسيما السور المكية التي كان نزولها على النبي ﷺ قبل هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

ولقصص القرآن الكريم أهداف سامية، ومقاصد عالية، وخصائص فريدة، تشهد بأن هذا القرآن من عند الله تعالى.

وقد اعتزمت - بعون الله - أن أقوم ببيان ماورد فى القرآن الكريم من قصص، سواء أكانت للأنبياء مع أقوامهم، أم لغيرهم ممن جاء الحديث عنهم كقصة ذى القرنين، وأصحاب الأخدود، وأصحاب القرية.. الخ.

وأسأل الله تعالى أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وأنس نفوسنا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

٢١ من رجب سنة ١٤١١هـ
٦ من فبراير سنة ١٩٩١م

محمد سيد طنطاوى



تمهيد

إن الذى يتدبر القرآن الكريم، يرى جانبًا كبيرًا من آياته وسوره، قد اشتمل على قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وعلى قصص غيرهم من الأخيار أو الأشرار.

يرى ذلك بصورة أكثر تفصيلاً فى السور المكية، التى كان نزولها قبل الهجرة، لأنها فى الأعم الأغلب اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وعلى أن البعث وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب حقٌّ وصِدْق.

وهذه الأدلة ساقتها السور المكية تارة عن طريق قصص الأنبياء مع أقوامهم، وتارة عن غير ذلك من الطرق الأخرى، كالنظر فى ملكوت السموات والأرض، وفى خلق الإنسان وغيره من سائر المخلوقات.

أما السور المدنية وهى التى كان نزولها بعد الهجرة فهى فى الأعم الأغلب اهتمت - بعد أن رسَّخت العقيدة السليمة فى قلوب المؤمنين -، بتفصيل أحكام الشريعة العملية، كالعبادات والمعاملات، والحدود، والعلاقات الاجتماعية، وتنظيم شئون الدولة الإسلامية داخليًّا وخارجيًّا.

فمثلاً من السور المكية التى اشتمل معظمها، أو جانب كبير منها، على

قصص الأنبياء، سور: الأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والشعراء، والقصص، والصافات.. ألخ.

○○○

والقصة فى كل زمان ومكان لها أثرها العميق فى النفوس لما فيها من عنصر التشويق، وجوانب الاعتبار والاتعاظ.

ولا تزال على رأس الوسائل التى يدخل منها الهداة والمصلحون والقادة، إلى قلوب الناس وعقولهم، لكى يسلكوا الطريق القويم، ويعتنقوا الفضائل ويجتنبوا الرذائل، ويسلموا وجوههم لله الواحد القهار.

ومن هنا ساق القرآن ما ساق من قصص يمتاز بسمو الغاية، وشريف المقصد، وصدق الكلمة والموضوع، وتحرى الحقيقة بحيث لاتشوبها شائبة من الوهم أو الخيال أو مخالفة الواقع.

كما أن من المميزات قصص القرآن: اشتماله على طرق شتى فى التربية والتهذيب، تارة عن طريق الحوار، وأحيانا عن طريق سلوك طريق الحكمة والاعتبار، وطورًا عن طريق التخويف والإنذار.

نرى ذلك – على سبيل المثال – فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قائِمٌ وَحَصِيدٌ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتي يَدْعونَ من دُون الله من شىْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، ومَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب، وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهى ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، إِنَّ فى ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ

عَذَابَ الآخِرة، ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْموعٌ له النَّاسُ وَذَلِكَ يوم مَشْهُود﴾
[سورة هود: الآيات ١٠٠ - ١٠٣]

○○○

وللقصة فى القرآن الكريم أهداف سامية، ومقاصد عالية، وحكم متعددة، من أهمها:

بيان أن الرسل جميعًا قد أرسلهم الله تعالى برسالة واحدة فى أصولها، ألا وهى إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وأداء التكاليف التى كلف - سبحانه - خلقه بها، وقد وردت آيات كثيرة، تدل على أن أول كلمة قالها كل رسول لقومه، هى أمرهم بعبادة الله - تعالى - ونهيهم عن عبادة أحد سواه.

فهذا نوح - عليه السلام - يقول لقومه - كما حكى القرآن عنه - ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَالَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْره﴾
[الأعراف: الآية ٥٩]

وهذا هود - عليه السلام - يقول لقومه: ﴿يَا قَومِ اعْبُدُوا الله مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيره﴾ [الأعراف: الآية ٦٥]

وهذا صالح - عليه السلام - يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه﴾ [الأعراف: ٧٣]

وهذا شعيب - عليه السلام - يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدوا الله مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: الآية ٨٥]

فهذه الجملة الكريمة حكاية لما وجهه هؤلاء الأنبياء لقومهم من إرشادات وهدايات.

أى قالوا لهم بكل لطف وأدب: اعبدوا الله وحده لا شريك له، فإنه هو المستحق للعبادة، أما سواه فلا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا.

ويحكى القرآن الكريم هذا المعنى على لسان كل نبى فيقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْه أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥]

أى: وما أرسلنا من قبلك - يا محمد - من رسول آخر، إلا وأفهمناه عن طريق وحينا، أنه لا إله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا، فعليه أن يأمر قومه بذلك، وأن ينهاهم عن عبادة غيرى.

○○○

بيان أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأن ما اشتمل عليه هذا القرآن من قصص للسابقين، لا علم للرسول ﷺ وإنما عَلِمَها بعد أن أوحاها الله - تعالى - إليه، وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه استمع إلى القرآن وهو يقرر ذلك فى مواطن متعددة.

فيقول فى أعقاب حديث طويل عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنباءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْك، مَا كُنْتَ تَعلَمُها أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْل هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَة لِلْمُتقِينَ﴾
[هود: الآية ٤٩]

أى: تلك القصة التى قصصناها عليك عن نوح وقومه من أخبار الغيب الماضية، التى لا يعلم دقائقها وتفاصيلها أحد سوانا، ونحن ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ ونعرفك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين.

وهذه القصة وأمثالها ﴿مَا كُنْتَ تَعلَمُهَا﴾ أنت يا محمد، وما كان يعلمها ﴿قَوْمُكَ﴾ - أيضًا - بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ هذا الوقت الذى أوحيناها إليك فيه.

وما دام الأمر كذلك ﴿فَاصْبِر﴾ صَبْرا جميلًا على تبليغ ما أمرك الله بتبليغه، كما صبر أخوك نوح من قبلك، واعلم أن العاقبة الحسنة للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله تعالى.

فالآية الكريمة تعقيب حكيم على قصة نوح - عليه السلام - قصد به الأمتنان على النبى ﷺ، كما قصد به الموعظة والتسلية.

أما الامتنان فنراه فى قوله - سبحانه -: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَومُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾

أما الموعظة فنراها فى قوله - تعالى - ﴿فَاصْبِرْ﴾.

وأما التسلية فنراها فى قوله - عز وجل -: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وشبيه بذلك ما قاله - سبحانه - فى أعقاب الحديث الطويل عن قصة يوسف - عليه السلام - مع أخوته ومع غيرهم قال - تعالى -:
﴿ذَلك مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيه إِلَيْكَ وَمَا كُنْت لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعوا أَمْرَهُم وَهُمْ يَمْكُرونَ﴾ [يوسف: الآية ١٠٢]

أى: ذلك الذى قصصناه عليك يا محمد من قصة أخيك يوسف، من الأخبار الغيبية التى لا يعلمها علمًا تامًّا شاملاً إلا الله - تعالى - وحده، ونحن نوحيه إليك ونخبرك به لما فيه من العظات والعبر.

وأنت يا محمد ما كنت حاضرًا مع إخوة يوسف، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به، وللاعتداء عليه، وقد أخبرناك بذلك للاعتبار والاتعاظ.

ونرى مثل هذا المعنى - أيضًا - وهو الدلالة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وحده ما قصه - سبحانه - علينا بعد حديث طويل عن جانب من قصة موسى - عليه السلام -، وعن جانب من قصة مريم.

أما بالنسبة لقصة موسى - عليه السلام - فقد قال - سبحانه:
﴿وَمَا كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَينا إلى موسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِين، وَلِكنَّا أَنْشأْنَا قرُونًا فَتطَاوَلَ عَلَيهِمُ الْعُمر، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ولَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلين، ومَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا..﴾ [سورة القصص: الآيات ٤٤ - ٤٦]

أى: لم تكن يا محمد حاضرًا وقت أن كلفنا أخاك موسى بحمل رسالتنا، وكان ذلك عند الجانب الغربى لجبل الطور، ولم تكن - أيضا - من المشاهدين لما أوحيناه إليه، ولكنا أخبرناك بذلك بعد أن خلت بينك وبين موسى أزمان طويلة.. ولم تكن - أيضا - مقيما فى أهل مدين، وقت أن حدث ما حدث بين موسى - عليه السلام - وبين الشيخ الكبير وابنتيه من محاورات.

ولم تكن - كذلك - بجانب جبل الطور وقت أن نادينا أخاك موسى، وأنزلنا إليه التوراة لتكون هداية ونورًا لقومه.

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة بيان أن هذا القرآن من عند الله - تعالى -، وأن الرسول ﷺ لم يكن عالمًا بتلك الأحداث السابقة، وإنما أخبره الله - تعالى - بها عن طريق قرآنه الكريم، ووحيه الصادق الأمين.

وأما بالنسبة لقصة مريم، فقد قال - سبحانه - خلالها: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِم إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

[سورة آل عمران: الآية ٤٤]

أى: ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك - يا محمد - فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران، وما قاله زكريا، وما قالته الملائكة لمريم.

ذلك كله من أخبار الغيب التى ما كنت تعلمها أنت ولا قومك، وإنما يعلمها الله وحده وأنت ما كنت حاضرًا مع زكريا - عليه السلام - ومع الذين نافسوه فى كفالة مريم، واقترعوا على ذلك فكانت كفالتها من نصيب زكريا - عليه السلام - ومن الواضح أن المقصود بهذه الآية الكريمة، وما يشبهها من آيات كثيرة، إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأن ما اشتمل عليه من قصص السابقين لم يكن للرسول ﷺ علم به، ولم يكن - أيضًا - لغيره علم صحيح به.

فجاء القرآن الكريم بهذه القصص، وحكاها بالحق والصدق، لتكون عبرة وعظة للناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا الله، وإِنَّ الله لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران الآية ٦٢]

وقال - سبحانه -: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأهم بِالْحَقِّ إِنهُمْ فِتيةٌ آمنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [سورة الكهف: الآية ١٣]

وقال عز وجل: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٧]

كذلك أن أهداف القصة فى القرآن الكريم: تثبيت فؤاد النبى ﷺ - وتسليته عما أصابه من قومه، وتبشيره بأن العاقبة الطيبة ستكون له... أما تثبيت فؤاده عن طريق قصص الأنبياء السابقين، فنراه فى آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَذِه الحقُّ وموعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِين﴾.
[سورة هود: الآية ١٢٠]

وقد جاءت هذه الآية الكريمة فى أواخر سورة «هود» التى تحدثت عن جانب من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم الصلاة والسلام، مع أقوامهم، وفيها يبين الله - تعالى - أهم الفوائد التى تعود على الرسول - ﷺ -، من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع من أرسلوا إليهم..

والمعنى: وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك - أيها الرسول الكريم - ونخبرك عنه، المقصود به تثبيت قلبك، وتقوية يقينك، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك، عما لحقكم من أذى، فى سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس...

ولقد جاءك يا محمد - ﷺ - فى هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم، الحق الثابت المطابق للواقع، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به.

وأما التسلية عن طريق قصص الأنبياء السابقين، والتسرية عن قلبه - ﷺ - ودعوته إلى الاقتداء بهم فى صبرهم.. فكل ذلك نراه فى آيات كثيرة..

منها قوله - سبحانه -: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ، وَذَكِّر فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
[سورة الذاريات: الآيات ٥٢ - ٥٥]

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة بعد حديث مركّز عن جانب من قصة إبراهيم وموسى وهود وصالح ونوح عليهم الصلاة والسلام -

والمعنى: نحن نخبرك - يا محمد - بأنه ما أتى الأقوام الذين قبل قومك من نبى أو رسول، يدعوهم إلى عبادتنا وطاعتنا، إلا وَقالوا له، كما قال قومك فى شأنك - هذا الذى يدعى الرسالة أو النبوة ساحر أو مجنون.

والمقصود بالآية الكريمة: تسلية النبى ﷺ - عما أصابه من مشركى قريش، إذ بين له - سبحانه - أن ما أصابه قد أصاب الرسل من قبله، والمصيبة إذا عمت خفت.

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية تسلية أخرى فقال: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ ؟!!

أى: أوصّى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول يأتيهم من ربهم، أنت - أيها الرسول - ساحر أو مجنون؟.

وقوله - سبحانه -: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾: إضراب عن تواصيهم إضراب إبطال، لأنهم لم يجمعهم زمان واحد أو مكان واحد، حتى يوصى بعضهم بعضًا، وإنما الذى جمعهم تشابه القلوب، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان.

أى: أوصّى بعضهم بعضًا بهذا القول القبيح؟ كلا لم يوص بعضهم بعضًا، لأنهم لم يتلاقوا، وإنما تشابهت قلوبهم، فاتحدت ألسنتهم فى هذا القول المنكر. ثم تسلية ثالثة نراها فى قوله - تعالى -: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾.

أى: فأعرض عنهم - أيها الرسول الكريم -، وسر فى طريقك دون مبالاة بمكرهم وسفاهتهم، فما أنت بملوم على الأعراض عنهم، وما أنت بمعاتب منا على ترك مجادلتهم..

وداوم على التذكير والتبشير والإنذار مهما تقول المتقولون، فإن

التذكير بما أوصيناه إليك من هدايات سامية، وآداب حكيمة.. ينفع المؤمنين.

وشبيه بهذه الآيات فى تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من أذى، قوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُم قَوْمُ نُوحٍ وَعَاد وَثَمُودُ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ، وَأَصْحَاب مَدْيَنَ، وَكُذِّبَ مُوسَى، فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُم فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.
[الحج: الآيات ٤٢ - ٤٤]

وأما دعوته - ﷺ - على الاقتداء بإخوانه الأنبياء السابقين فى صبرهم، فنراه فى آيات متعددة..

منها قوله - سبحانه -: ﴿أُولئكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ....﴾. [الأنعام: الآية ٩٠]

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - فى الآيات السابقة عليها أسماء ثمانية عشر نبيًّا، ثم أمره بالاقتداء بهم فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهْ....﴾ أى: أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم لك - يا محمد - أهم الذين هديناهم إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم فبطريقتهم فى الإيمان بالله، وفى ثباتهم على الحق، كن مقتديًا ومتأسيا. وأما تبشيره - ﷺ - عن طريق قصص الأنبياء السابقين بأن النصر سيكون له ولأتباعه، فنراه فى آيات كثيرة..

منها قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى

مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأ الْمُرسَلِينَ﴾. [الأنعام: الآية ٣٤]

أى: ولقد كذب الأقوام السابقون رسلاً كثيرين جاءوا لهدايتهم، فكان موقف هؤلاء الرسل من هذا التكذيب والأذى الصبر والثبات، واستمروا على صبرهم وثباتهم حتى أتاهم نصرنا الذى اقتضته سنتنا وأحكامنا التى لا تتخلف..

ولقد جاءك – أيها الرسول الكريم – من أخبار إخوانك الأنبياء السابقين، ما فيه العظات والعبر، فعليك أن تستبشر بأن النصر سيكون لك ولأتباعك.

ومن الآيات التى بشرت النبى – ﷺ – بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه، كما كانت للأنبياء السابقين وأتباعهم قوله – تعالى –: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

[سورة المجادلة: الآية ٢١]

وقوله – سبحانه –: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُم الْمَنْصُورُونَ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُم الْغَالِبُونَ﴾.

[سورة الصافات: الآيات ١٧١ – ١٧٣]

وقوله – تعالى – : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾. [سورة غافر: الآية ٥١]

○ ○ ○

وأيضا من أهداف القصة فى القرآن الكريم: الاعتبار والاتعاظ..

قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرى، وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُل شَىْءٍ، وَهُدى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذه الآية الكريمة هى الآية الأخيرة التى ختم الله - تعالى - بها سورة يوسف - عليه السلام -، التى اشتملت على أحسن القصص وأحكمه وأصدقه وأشده أثرًا فى النفوس..

أى: لقد كان فى قصص أولئك الأنبياء الكرام، وما جرى لهم من أقوامهم، عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة، والأفكار القوية، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من حكم وآداب وإرشادات..

وما كان هذا الذى قصصناه حديثًا مختلقًا أو كاذبًا، وإنما هو حديث لحمته وسداه الصدق الذى لا يحوم حوله الكذب، والتأييد لما صح من الكتب السابقة التى امتدت إليها أيدى الفاسقين بالتحريف والتبديل، والتفصيل والتوضيح للشرائع السابقة، والهداية والرحمة لقوم يؤمنون به، ويعملون بما فيه من أمر أو نهى..

والعبر والعظات التى نأخذها من قصص القرآن الكريم، لها صور شتى منها: بيان حسن عاقبة المؤمنين، الذين ثبتوا على الحق، وابتعدوا عن الباطل، وتابوا إلى الله - تعالى - توبة صادقة، وشكروا الله - تعالى - على نعمه، بأن استعملوها فيما يرضيه لا فيما يسخطه...

ونرى نماذج لذلك فى قصة سليمان - عليه السلام - الذى آتاه الله - تعالى - ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده، فلم يبطره هذا الملك، ولم يشغله عن ذكر الله - تعالى -، بل قال - كما حكى القرآن عنه - ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

ونرى نماذج لذلك فى قصة ذى القرنين، الذى مكن الله - تعالى - له فى الأرض، فاستعمل ما آتاه الله من قوة فى الخير لا فى الشر، وفى الإصلاح لا فى الإفساد..

ونرى نماذج لذلك فى قصة أصحاب الكهف، الذين آمنوا بربهم، وزادهم الله - تعالى - إيمانًا على إيمانهم، بسبب ثباتهم على الحق...

نرى نماذج لذلك فى قصة قوم يونس - عليه السلام - الذين استجابوا لدعوة الحق، وصدقوا نبيهم فيما أخبرهم به، وأخلصوا دينهم لله - تعالى -...

قال - تعالى -: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. [سورة يونس: الآية ٩٨]

والمعنى: فهلًا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم، فآمنوا بالحق الذى جاءهم مع رسلهم، فنجوا بذلك من العذاب، كما نجا منه قوم يونس - عليه السلام - بسبب ندمهم على ما فرط منهم، وإيمانهم إيمانًا صادقًا، وتوبتهم توبة نصوحًا، فعاشوا آمنين إلى حين انقضاء آجالهم فى هذه الدنيا..

ومنها: بيان سوء عاقبة المكذبين، الذين أصروا على كفرهم، ولم يستمعوا لنصائح أنبيائهم، واستحبوا العمى على الهدى، وجحدوا نعم الله -تعالى-، واستعملوها فى المعاصى لا فى الطاعات..

ونرى نماذج لذلك فى قصة قارون الذى آتاه الله - تعالى - من النعم ما آتاه، فلم يشكر الله - تعالى - على نعمه، بل قال بكل غرور وصلف: ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى﴾ كما نرى نماذج لذلك فى قصة أهل سبأ الذين قال الله - تعالى - فى شأنهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

[سورة سبأ: الآيات: ١٥ - ١٧]

ولفظ سبأ فى الأصل: اسم لرجل ينتهى نسبه إلى أول ملك من ملوك اليمن، والمراد به هنا: الحى أو القبيلة المسماة باسمه، وكانوا يسكنون بمأرب على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء.

والمعنى: لقد كان لقبيلة سبأ فى مساكنهم، علامة واضحة على فضل الله - تعالى - عليهم، حيث جعل لهم - سبحانه - بستانين أحدهما عن يمين مساكنهم والثانى عن شمالها..

وقال الله - تعالى - لهم على ألسنة الصالحين منهم: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ

رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ نعمه، فأنتم تسكنون فى بلدة طيبة، فيها كل ما تحتاجونه، وقد منحها لكم الله الرحيم بكم، الغفور لذنوبكم، فاشكروه على ذلك.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أى: فأعرضوا عن نصح الناصحين، وجحدوا نعم الله، فكانت نتيجة ذلك، أن أرسل الله – تعالى – عليهم السيل المدمر، وتحولت البساتين اليانعة، إلى أماكن ليس فيها سوى الثمار والأشجار التى لا تسمن ولا تغنى من جوع...

وهذا الذى فعلناه بهم، سببه جحودهم وبطرهم، ومن سنتنا أننا لا نعاقب بهذا العقاب الرادع إلا من جحد نعمنا، وفسق عن أمرنا.

والمتدبر للقرآن الكريم يراه قد ساق لنا كثيرًا من قصص الجاحدين، ثم بين لنا سوء مصيرهم..

ومن ذلك أنه – سبحانه – بعد أن ذكر لنا جانبًا من قصص نوح وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وهود، وصالح وموسى... مع أقوامهم، عقب على ذلك بقوله – تعالى –: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. [العنكبوت: الآية ٤٠]

أى: فكلًّا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط... أخذناه وأهلكناه، بسبب ذنوبه التى أصر عليها ولم يرجع عنها.

فمنهم من أرسلنا عليه ﴿حَاصِبًا﴾ أى ريحا شديدة رمته بالحصاة كقوم لوط - عليه السلام - ومنهم من أخذته الصيحة الشديدة المهلكة كقوم صالح وشعيب - عليهما السلام -.

ومنهم من خسفنا به الأرض وهو قارون.

ومنهم من أغرقناه كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه.

وما كان الله - تعالى - مريدًا لظلمهم، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، وأوردوها موارد المهالك، بسبب إصرارهم على كفرهم وجحودهم.

○ ○ ○

هذه بعض الأهداف والمقاصد التى من أجلها ساق القرآن ما ساق من قصص، امتاز بسمو غاياته، وشريف مقاصده، وعلو مراميه...

وهناك أهداف أخرى، يستنبطها كل ذى عقل سليم، وما ذكرناه هو قليل من كثير، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

قصة آدم - عليه السلام -

تمهيد:

وردت قصة آدم - عليه السلام - فى سور متعددة من القرآن الكريم، منها سور: «الحجر» و «ص» و «الأعراف» و «الإسراء» و «الكهف» و «البقرة»..

وهناك آيات تحدثت عن خَلْقِه - عليه السلام -، وأخرى تحدثت عن أمر الملائكة بالسجود له، وثالثة حكت موقف إبليس من هذا الأمر، ورابعة ذكرت استخلاف آدم فى الأرض، وخامسة تحدثت عن إسكانه فى الجنة، وسادسة ذكرت إغواء إبليس له وما ترتب على ذلك من عقوبات، وسابعة تحدثت عن تحذير بنى آدم من الشيطان.

وبعض السور وضحت معظم هذه العناصر فى قصة واحدة، وبعضها تحدث عن عنصر أو عنصرين أو أكثر منها، ولكن بأسلوب له مزايا وتأثيره وتوجيهاته، وتتحقق فيه البلاغة - التى هى رعاية الكلام لمقتضى الحال - فى أبهى صورها وأسماها وأحكمها.

وسنحاول - بإذن الله - أن نتناول كل عنصر من واقع حديث القرآن عنه، ثم نعقب على ذلك ببيان ما يؤخذ من هذه القصة من دروس نافعة، وعظات بليغة، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

○○○

قصة خلق آدم - عليه السلام:

من مزايا القرآن الكريم أنه يخاطب الناس بما يعنيهم من أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولا يكلفهم أن يبحثوا عن أمور غيبية لا علاقة لها بمصالحهم ومنافعهم، ولا فائدة من وراء البحث فيها.

إنه لم يحدثهم عما سبق آدم - عليه السلام - من مخلوقات لا علم لهم بها، وإنما علمها عند الله - تعالى -، وإنما حدثهم عن قصة خلق أبيهم آدم - عليه السلام -، وعما تعرض له من أحداث، لكى يأخذوا منها العظات والعبر.

وقد جاء الحديث عن خلق آدم - عليه السلام - فى سور متعددة، منها قوله - تعالى -:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمإٍ مَسْنُونٍ. والْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [سورة الحِجْر الآيتان ٢٦، ٢٧]

والمراد بالإنسان هنا آدم - عليه السلام -، لأنه أصل النوع الإنسانى، وأول فرد من أفراده، كما قال - سبحانه - ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِنْ نَفْس وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثيرًا وَنساءً﴾ [النساء: الآية ١]

والمقصود بالنفس الواحدة فى هذه الآية الكريمة: آدم - عليه السلام .

والصلصال: الطين اليابس الذى يصلصل. أى: يُحدث صوتًا إذا حُرِّك أو نُقِر عليه، كما هو الشأن فى الفخار إذا حُرِّك أو نُقِر عليه.

والحمأ: الطين إذا اشتد سواده وتغيرت رائحته.

والمسنون: المصور من سنَّ الشىء إذا صوره.

والمراد بالجان هنا: أبو الجن عند جمهور المفسرين. وقيل هو إبليس. وقيل: هو اسم لجنس الجن. أى: خلق - سبحانه - آدم عليه السلام - من طين يابس شديد السواد، مصور على هيئة معينة، لا يعلم تفاصيلها ودقائقها إلا هو - سبحانه -، وخلق الجان من قبل خلق آدم من نار السموم « أى: من النار التى تقتل، وسميت سموما لأنها لشدة حرارتها وقوة تأثيرها تنفذ فى مسام البدن.

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى عنها - أن رسول الله ﷺ قال: خُلِقت الملائكة من نور، وخُلِقت الجان من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وصف لكم».

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - فى سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ أى: من اللهب الخالص، أو من خليط من لهب النار والفخار: الخزف المجوف الذى صار كذلك بعد أن أدخل فى النار.

والذى يتدبر القرآن الكريم، يرى أن الله تعالى - قد وضح فى آيات متعددة أطوار خلق آدم - عليه السلام -

فقد بين فى بعض الآيات أنه خلقه من تراب، كما فى قوله -

تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثم قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: الآية ٥٩]

وبين فى آيات أخرى أنه - سبحانه - خلقه من طين، كما فى قوله - تعالى - ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شىءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة السجدة: الآية ٧]

وبين فى آية سورة الحجر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون

وبين فى آية سورة الرحمن أنه خلقه من صلصال كالفخار.

ولا تعارض بين هذه الآيات التى تحكى أن آدم - عليه السلام - قد خلق من تراب، أو من طين، أو من صلصال من حمأ مسنون، أو من صلصال كالفخار.

لأن كل آية تتحدث عن مرحلة من مراحل خلقه - عليه السلام -، لأن هذا التراب صار طيناً، ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنوناً، ثم يبس فصار صلصالاً كالفخار.

فالآيات التى تحدثت عن خَلْق آدم - عليه السلام - لا يصادم بعضها بعضًا، وإنما يؤيد بعضها بعضًا.

وقد أكد ذلك بعض المفسرين فقال عند تفسيره لآية سورة الحجر: «وهذا الطور - وهو خلق آدم - عليه السلام - من صلصال من حمأ مسنون - هو آخر أطوار خلق آدم، وأول ابتدائه أنه كان ترابًا متفرق الأجزاء، ثم بُلَّ - أى: التراب - فصار طيناً، ثم ترك حتى اسود وصار

حمأً مسنونًا، ثم يبس فصار صلصالاً..

وعلى هذه الأحوال والأطوار، تتخرج الآيات الواردة فى أطواره الطينية، كآية خلقه من تراب، وآية خلقه من طين، وهذه الآية التى نحن فيها.»[1]

وقال بعض العلماء: وقد أثبت العلم الحديث، أن جسم الإنسان يحتوى من العناصر ما تحتويه الأرض، فهو يتكون من الكربون، والأكسجين، والحديد..

وهذه نفسها هى العناصر المكونة للتراب، وإن اختلفت نسبها من إنسان إلى آخر - إلا أن هذا الذى أثبته العلم، لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمى للنص القرآنى، فقد تكون الحقيقة القرآنية تعنى هذا الذى أثبته العلم، أو تعنى شيئا آخر سواه، وتقصد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة، التى يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب، أو من طين، أو من صلصال.

والذى ننبه إليه بشدة، هو ضرورة عدم قصر النص القرآنى، على كشف علمى بشرى، قابل للخطأ والصواب، وقابل للتعديل والتبديل، كلما اتسعت معارف الإنسان، وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة».

والمقصود من هذه الآيات الكريمة: التنبيه على عجيب صنع الله - تعالى -، وعظيم قدرته، حيث أخرج - سبحانه - من هذه المواد

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٤٣.

بشرًا سويًا فى أحسن تقويم، وتذكير بنى آدم بفضلهم على غيرهم، حيث خلق أباهم آدم - عليه السلام - من تلك العناصر، وأمر الملائكة بالسجود له، وفى ذلك ما فيه من تكريم وتشريف له ولهم.

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٠]

استخلاف الله - تعالى - لآدم فى الأرض:

شاء الله تعالى - واقتضت حكمته، أن يخلق آدم من طين، وأن يستخلفه هو وذريته فى الأرض ليعمروها، وأخبر - سبحانه - الملائكة المقربين بما أراده وقضاه.

وحكى القرآن الكريم ذلك فى آيات منها قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملَائِكَةِ إِنِّى جَاعل فى الْأَرْضِ خَلِيفَة، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، ونَحْنُ نسبِّح بِحمدكَ وَنُقَدسُ لَكَ، قَالَ إِنِّى أَعْلَم مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاء كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهم عَلَى الْملائِكةِ فَقَالَ أَنبِئونِى بِأسماء هَؤلاء إنْ كُنتم صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمتَنَا إنكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُم إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّموات وَالْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تبدونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمونَ﴾

[سورة البقرة: الآيات ٣٠ - ٣٣]

والمعنى: واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قال ربك للملائكة، ياملائكتى إنى جاعل فى الأرض خليفة.

والملائكة: جمع ملك، وهم جند من خلق الله - تعالى -، ركز الله فيهم العقل والفهم، وفطرهم على الطاعة، وأقدرهم على التشكل بالأشكال الجميلة المختلفة، وعلى الأعمال العظيمة الشاقة، ووصفهم - سبحانه - فى كتابه بأوصاف كثيرة. منها: إنهم﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

ومنها: أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

والخليفة: من يخلف غيره وينوب منابه، والمراد به آدم - عليه السلام - لأنه كان خليفة الله - تعالى - فى الأرض، وكذلك سائر الأنبياء، استخلفهم الله فى عمارة الأرض، وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وإجراء أحكامه عليهم، وتنفيذ أوامره فيهم.

وخطاب الله تعالى - لملائكته بأنه سيجعل فى الأرض خليفة، ليس المقصود منه مشورتهم، لأنه - سبحانه - هو صاحب الخلق والأمر.

وإنما خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن وجه الحكمة من هذه الخلافة، وما أجيبوا به بعد.

أو من أجل تعليم العباد المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو - سبحانه - بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة.

○ ○ ○

ثم حكى - سبحانه - إجابة الملائكة فقال: ﴿قَالُوا أَتجعلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيَها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدسُ لَكَ...﴾

والفساد: الخروج عن الاستقامة والاعتدال، ويضاده الصلاح -

والسفك: الصب والإهراق، يقال: سفكت الدمع والدم سفكًا، إذا صببته، والمراد به حصول التقاتل بين الأفراد ظلمًا وعدوانًا.

والتسبيح: مشتق من السبح، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء، فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من كل مالا يليق.

والتقديس: التطهير والتعظيم، ووصفه - سبحانه - بما يليق من صفات الكمال، فيكون التسبيح نفى ما لا يليق، والتقديس إثبات ما يليق.

والمعنى: أتجعل فى الأرض يا إلهنا من يفسد فيها، ويريق الدماء، والحال أننا نحن ننزهك عما لا يليق بعظمتك، تنزيهًا ملتبسًا بحمدك والثناء عليك، ونطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيمًا لك وتمجيدًا.

وقولهم هذا ليس إنكارًا لفعله - تعالى - ولا شكا فى حكمته و لا تنقصًا لخليفته لأنهم أولياؤه المقربون، وعباده المكرمون.

وإنما قولهم هذا، من باب الخوف من أن يكون قد وقع تقصير منهم فى عبادته - سبحانه - فأسرعوا إلى تبرئة أنفسهم من ذلك.

أو هو من باب استطلاع الحكمة، فى خلق نوع من الكائنات يصدر منه الإفساد فى الأرض، وسفك الدماء.

والملائكة لا يعلمون الغيب، فلا بد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد فى الأرض، وسفك الدماء، بوجه من الوجوه التى يطلع الله بها على غيبه من المصطفين الأخيار من خلقه.

قال الإمام ابن كثير فى توضيح هذا المعنى: قوله - تعالى - ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ﴾ أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من الخلق، من صلصال من حمأ مسنون.

أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من مظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم.

وقول الملائكة هذا، ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبنى آدم، كما قد يتوهمه البعض، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك، يقولون يا ربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد فى الأرض، ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، ولا يصدر منا شىء يخالفه أمرك، فهلا وقع الاقتصار علينا لعمارة هذه الأرض»[(١)].

○○○

وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله: ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٦٩.

أى إنى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف من البشر واستخلافه فى الأرض، مالا تعلمون أنتم.

فإنى سأجعل منهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، وسيكون منهم الصديقون والشهداء والصالحون..

فالجملة الكريمة، إرشاد للملائكة إلى الأمر الذى من شأنه أن يقف بهم عند حدود الأدب اللائق بمقام الخالق، وتنبيه إلى أنه - تعالى - عالم بما لا يحيط به علم أحد من خلقه، فله - سبحانه - أن يفعل ما يشاء، ويأمر بما يشاء.

قال بعض العلماء: «وفى هذه الآية الكريمة تسلية للنبى - ﷺ - عن تكذيب بعض الناس له، لأنه إذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان والحكمة فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله - تعالى - الملائكة المقربين.

أى: فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين، وترشد المسترشدين».

○ ○ ○

ثم بين - سبحانه - جانبًا من حكمة خلق آدم، وجعله خليفة فى الأرض فقال - تعالى -: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أى: وألهم الله - تعالى - آدم معرفة ذوات الأشياء التى خلقها فى الجنة، كما ألهمه معرفة أسمائها ومنافعها وخواصها..

ثم عرض - سبحانه - هذه المسميات على الملائكة، وقال لهم على سبيل التعجيز: أخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فيما اختلج فى خواطركم من أنى لا أخلق خلقًا إلا وأنتم أعلم منه وأفضل.

○○○

ثم حكى - سبحانه - ما أجاب به الملائكة فقال: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

ولفظ «سبحان» اسم مصدر بمعنى التسبيح، أى: التنزيه، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه.

أى: قال الملائكة على سبيل الاعتراف والعجز التام عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة عليهم بأبلغ وجه؛ جل شأنك - يا ربنا -، لا علم لنا بشىء إلا ما علمتنا إياه، إنك أنت - يا ربنا - العليم بكل شىء، الحكيم فى خلقك وأمرك، وفى تعليمك من تشاء، ومنعك من تشاء..

وهنا أمر الله - تعالى - آدم - عليه السلام - أن يخبر الملائكة بالأسماء التى سئلوا عنها، بعد أن عجزوا عن معرفتها فقال: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

ففى هذه الآية الكريمة، أخبرنا الله – تعالى – أنه قد أذن لآدم – عليه السلام – فى أن يخبر الملائكة بالأسماء التى فاتتهم معرفتها، ليظهر لهم فضل آدم، ويزدادوا اطمئنانًا إلى أن إسناد الخلافة إليه، إنما هو تدبير قائم على حكمة بالغة.

وفى قوله – سبحانه – للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. تعريض بمعاتبتهم على ترك الأَوْلى والأليق، حيث بادروا بالسؤال عن الحكمة، وكان الأَوْلى والأليق أن يأخذوا بالأدب المناسب لمقام الألوهية، فيتركوا السؤال عنها، إلى أن يستبين لهم أمرها بوجه من وجوه العلم.

ومن الدروس النافعة، والفوائد الجليلة التى تؤخذ من هذه الآيات: أن الله – تعالى – قد اختار آدم وذريته ليكونوا خلفاء الله – تعالى – فى أرضه، لكى يصلحوها، ويقدموا العمل الصالح الذى يجعلهم يحيون حياة طيبة..

وأن العلم على رأس الأسباب التى هيأت آدم – عليه السلام – ليكون خليفة من الله – تعالى – على هذه الأرض.

وأن علم آدم – عليه السلام – كان مستمدا من تعليم الله – تعالى – إياه، وأن العلم الذى يحصل عن طريق النظر والفكر، قد يعتريه الخلل، ويحوم حوله الخطأ، بخلاف العلم الذى يتلقاه الإنسان من تعليم الله – تعالى – له، فإنه يكون علمًا مطابقًا للواقع، ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن طريق الإصلاح، وصاحب هذا العلم هو الذى يصلح للخلافة

فى الأرض. ومن هنا كانت السياسة الشرعية، أرشد من كل سياسة، والأحكام النازلة من السماء أعدل من القوانين الناشئة فى الأرض.

حديث القرآن عن سجود الملائكة لآدم، وامتناع إبليس عن ذلك

تكرر الحديث فى القرآن الكريم عن أمر الله - تعالى - للملائكة بالسجود لآدم - عليه السلام - وعن امتناع إبليس عن الامتثال لأمر الله - تعالى - فى سور متعددة، منها: سور البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص...

ففى سورة البقرة الآية ٣٤، نرى قول الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى واسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

والسجود لغة: التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره، وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة.

وللعلماء فى كيفية السجود الذى أمر الله به الملائكة لآدم أقوال: أرجحها أن السجود المأمور به فى الآية، يحمل على المعنى المعروف فى الله.

أى: أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهرًا من

مظاهر التواضع والخضوع له تحية وتعظمًا، وإقرارًا له بالفضل، دون وضع الجبهة على الأرض الذى هو عبادة، إذ عبادة غير الله - تعالى - شرك يتنزه عنه الملائكة.

وأمر الله - تعالى - الملائكة بالسجود لآدم - عليه السلام -، هو لون من الابتلاء والاختبار، ليميز الله الخبيث من الطيب، وينفذ ما سبق به العلم، واقتضته الحكمة.

وقوله - سبحانه -: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بيان لما حدث من الملائكة ومن إبليس.

وإبليس: اسم مشتق من الإبلاس، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس. وفعله أبلس...

وقوله: ﴿أَبَى﴾ من الإباء بمعنى الامتناع عن الفعل أنفة مع التمكن منه.

وقوله: ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ أى: تعاظم وتكبر واغتر على غيره.

أى: واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ، وقت أن قال ربك - عز وجل - للملائكة اسجدوا لآدم سجود تعظيم وتكريم لا سجود عبادة، فامتثلوا أمره - تعالى - وسجدوا جميعًا، إلا إبليس فإنه امتنع عن ذلك أنفة وتكبرًا وغرورًا، وكان بسبب فعله هذا من الجاحدين لنعم الله - تعالى -، العاصين لأمره، البعيدين عن رحمته هذا، وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة أولا قولان:

أحدهما: أنه كان منهم، لأن الله - تعالى - أمره بالسجود لآدم، ولو لم يكن منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود، ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه، حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه.

والثانى: أنه ليس منهم لقوله - تعالى -: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة.

وقد حاول الإمام ابن القيم أن يجمع بين الرأيين فقال: والصواب فى هذه المسألة التفصيل، وأن القولين فى الحقيقة قول واحد، فإبليس كان مع الملائكة بصورته، وليس منهم بمادته وأصله، كان من نار وأصل الملائكة من نور، فالنافى كونه من الملائكة، والمثبت أنه منهم، لم يتواردا على محل واحد. أى أن الخلاف لفظى وليس حقيقيًّا.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الكهف. الآية: ٥٠:
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

والمعنى: واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ، وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فامتثلوا أمرنا، وسجدوا جميعًا، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ولم يسجد، لأنه كان من الجن الذى خلقه الله - تعالى - من النار، فخرج بذلك عن طاعتنا، واستحق لعنتنا وغضبنا، ومادام الأمر كذلك،

فابتعدوا عنه يا بنى آدم، واحذروا وسوسته، واجتنبوه هو وذريته لأنهم لكم أعداء، وإن الذى يتخذه هو وذريته أولياء، يكون من الواضعين للشىء فى غير موضعه، ومن المستبدلين للذى هو أدنى بالذى هو خير، إذ تركوا طاعة الله - تعالى -، وأطاعوا إبليس وذريته.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ذكرت بنى آدم بالعداوة القديمة بين أبيهم آدم، وبين إبليس وذريته..

والمقصود بهذا التذكير، تحذيرهم من وساوسه، وحضهم على مخالفته...

○○○

ومن الآيات القرآنية التى ساقت هذه القصة بشىء من التفصيل، فحكت امتثال الملائكة لأمر الله - تعالى -، وامتناع إبليس عن السجود لآدم، كما حكت الأسباب التى حملت إبليس على عدم السجود، وعقاب الله - تعالى - له، وإعلان إبليس عداوته لآدم وذريته....

من هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة الأعراف(1): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ...﴾.

أى: ولقد خلقنا أباكم آدم من طين غير مصور، ثم صورناه بعد ذلك..

أو المعنى: ولقد خلقناكم فى ظهر أبيكم آدم، ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق بأن تعبدونى ولا تشركوا بى شيئا.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

---

(1) الآيات من ١١-١٨.

ثم حكى - سبحانه - الأسباب التى حملت إبليس على عدم السجود لآدم فقال: ﴿قَالَ مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ...﴾.

أى: قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التوبيخ والتقرير: ما الذى حملك على عدم السجود لآدم مع أنى قد أمرتك به كما أمرت الملائكة؟.

وقد حكى القرآن ما أجاب به إبليس فقال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

أى: قال إبليس بصلفه وغرور وإصرار على معصية أمر الله - تعالى -: أنا خير من آدم، لأنى مخلوق من عنصر النار، وآدم مخلوق من عنصر الطين ثم حكى - سبحانه - مارد به على إبليس فقال: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أى: من الجنة بسبب عصيانك لأمرى، وخروجك عن طاعتى...

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أى: فما يصح وما يستقيم أن تتكبر فيها، لأنها ليست مكانًا للمتكبرين، وإنما هى مكان للمطيعين الخاشعين المتواضعين.

﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أى: فاخرج يا إبليس من الجنة، فأنت من أهل الصغار والهوان على الله - تعالى -، وعلى أوليائه لتكبرك وغرورك.

ثم حكى القرآن الكريم ما طلبه إبليس من الله - تعالى -، وما قاله - سبحانه - له: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِى إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

أى: قال إبليس يا رب أخرنى ولا تمتنى إلى يوم بعث آدم وذريته من القبور، وهو وقت النفخة الثانية عند قيام الساعة.

وقد أراد بذلك النجاة من الموت، إذ لا موت بعد البعث، كما أراد بذلك أن يجد فسحة من الوقت لإغواء بنى آدم.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أى: قال الله - تعالى - لإبليس إنك من المؤخرين إلى يوم الوقت المعلوم.

ثم حكى - سبحانه - ما توعد به إبليس آدم وذريته من كيد وأذى فقال: ﴿قَالَ فبِمَا أَغْوَيْتَنِى﴾.

أى: فبسبب إغوائك لى، وطردك إياى من رحمتك..

﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم﴾ أى: لأترصدن لآدم وذريته على طريق الحق، كما يترصد قطاع الطرق للسائرين فيها، فأصدنهم عنها، وأحاول بكل وسيلة، صرفهم عن الصراط المستقيم ﴿ثُمَّ لآتِينَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ...﴾ أى: ثم لآتينهم من الجهات الأربع التى اعتاد العدو أن يهاجم عدوه منها، وهى الأمام والخلف واليمين والشمال والمراد لن أترك وسيلة لإغوائهم وإضلالهم إلا وفعلتها.

﴿ولَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين﴾ أى: مطيعين مستعملين لنعمك فيما خلقت له.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾.

وقوله: ﴿مَذْءُومًا﴾ أى: محقرا. يقال: ذأمه يذأمه ذأما، إذا عاقبه وحقره.

وقوله: ﴿مَدْحُورًا﴾ أى: مطرودًا. يقال: دحره دحرا ودحورا، إذا طرده وأبعده.

أي: قال الله - تعالى - لإبليس: اخرج من الجنة وأنت معاقب بالتحقير والطرد من رحمتي.

﴿لَمَنْ تبِعَك مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمعِينَ﴾.

أي: اخرج من الجنة محقرا مطرودا، واعلم أن من تبعك من الجن والإنس، سيكون مصيرهم ومصيرك معهم النار وبئس القرار.

كما قال - سبحانه - ﴿قَالَ اذْهبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُم فَإِنَّ جَهَنَّم جَزاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾

ooo

وفى سورة الحجر[1] آيات كريمة فصلت الحديث عن هذه القصة، وأضافت إلي ذلك اعتراف إبليس بأنه لا سلطان له على المؤمنين الصادقين.

قال - تعالى -: ﴿وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمإٍ مَسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعوا لَهُ سَاجِدِيَن﴾

أي: فإذا سويت خلق هذا البشر وهو آدم، وكملت أجزاءه، وجعلته في أحسن تقويم، فاسقطوا وخروا له ساجدين.

---

(١) الآيات من ٢٦ - ٤٤.

﴿فَسَجَد الْملاَئِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعُونَ، إلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكونَ مَعَ السَّاجِدين، قال يَا إِبْلِيسُ مَالَك ألاَّ تكونَ مَعَ السَّاجِدينَ قال لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُد لِبَشرٍ خَلَقتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنِ حَمأٍ مَسْنُونٍ، قَالَ فَاخْرَجْ مِنْها - أي: من الجنة - فإنّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم ومطرود من رحمتي ﴿وَإنَّ عَلَيكَ اللَّعْنَة إلى يَوْمِ الدينِ﴾ وهو يوم الجزاء والحساب، وبعده ستكون اللعنة مستمرة عليك.

﴿قال رَبِّ فَأَنْظِرْنِي - أي: فأمهلن ولا تمتني - إلى يَوْمِ يُبْعَثونَ، قَالَ فَإِنَّكَ من المنْظَرينَ، إلىَ يَوْمِ الوَقْتِ الْمَعلُوم، قال رَبِّ بما أَغْوَيتني - أي بسبب إغوائك لي - لأزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأرْضِ - أي: لأزينن لهم المعاصي والسيئات - وَلأغْوِينَّهُمْ - أي: ولأضلنهم - أجْمَعينَ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمخْلَصِينَ﴾ فإنه لا طاقة لي على إغوائهم بسبب قوة إيمانهم، وثبات يقينهم. ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيّ مستقيمٌ﴾ أي: قال الله - تعالى - لإبليس: إن عدم قدرتك على إغواء عبادي المخلصين، هو سنتي التي لا تتخلف، وطريقي الذي اقتضته حكمتي وعدالتي ورحمتي. ﴿إنَّ عبَادي لَيْس لَكَ عَلَيْهم سُلْطَانٌ﴾ أي ليس لك قدرة على إضلال عبادي المخلصين ﴿إلاَّ مَنِ اتبَعَك مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: ولكن لك قدرة على إغواء أتباعك وضعاف الايمان من الناس.

﴿وَإنَّ جَهَنَّم لَموعِدُهُمْ﴾ أي: لموعد الغاوين الضالين ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

وفي سورة الإسراء[1] آيات كريمة، ساقت هذه القصة بأسلوب

---

(١) الآيات من ٦١ - ٦٥.

آخر، ركزت فيه على بيان إصرار إبليس على عداوة آدم وذريته، وعلى العقوبات الشديدة التي توعد الله - تعالى - بها إبليس.

قال - تعالى -: ﴿وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدوا إِلَّا إِبليس قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

أى: قال إبليس لخالقه - تعالى - على سبيل التكبر والغرور، أأسجد وأنا المخلوق من نار، لمن خلقته من طين وهو آدم - عليه السلام -، مع أننى أفضل منه.

ثم لم يكتف إبليس بهذا الغرور والعصيان، بل أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَك هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيّ، لَئِنْ أَخرْتنِ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لأَحْتَنكَنَّ ذُرّيَّته، إلا قَلِيلاً﴾.

أى: قال إبليس بصلف وسوء أدب فى الرد على خالقه - عز وجل -: أخبرنى عن هذا الإنسان المخلوق من الطين، لماذا فضلته علىّ، وأمرتنى بالسجود له.

أقسم لك - يا إلهى - لئن أخرت أجلى إلى يوم القيامة ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قليلاً﴾ أى: لأستولين على جميع أفراد ذريته، ولأجعلنهم ينقادون لى إلا عددًا قليلا منهم وهنا رد الله تعالى - عليه بقوله: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾.

أى: قال الله تعالى - له على سبيل التحقير والإهانة، اذهب مطرودًا ملعونًا، وقد أخرنا أجلك إلى يوم القيامة، فافعل ما بدا لك مع بنى آدم،

فمن أطاعك منهم، فإن جهنم هى جزاؤك وهى جزاؤهم، جزاء كاملاً غير منقوص.

ثم أضاف - سبحانه - إلى إهانته وتحقيره لإبليس أوامر أخرى فقال: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ، وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوالِ وَالْأَوْلَادِ، وَعِدْهُم، وَمَا يعدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلَّا غُرورًا﴾.

والمقصود بهذه الأوامر التهديد والاستدراج والتحقير لإبليس ولوساوسه. أى: أن الله - تعالى - قال له: اذهب أيها اللعين مطرودًا، وافعل ما شئت من بنى آدم، من الاستفزاز والخداع والإزعاج ولهو الحديث، وأجلب عليهم ما تستطيع جلبه من مكايد، وما تقدر عليه من وسائل، كأن تناديهم بصوتك ووسوستك على المعاصى، وكأن تحشد جنودك على اختلاف أنواعهم لحربهم وإغوائهم وصدهم عن الطريق المستقيم، وشاركهم فى الأموال بأن تحضهم على جمعها وإنفاقها فى الطرق الحرام، وشاركهم فى الأولاد بأن تحثهم على أن ينشئوهم تنشئة سيئة.

وعدهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين الصادقين.

فقال - تعالى - ﴿إِنَّ عبادى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ، وكَفَى بِرِبِّكَ وَكِيلاً﴾.

أى: إن عبادى الصادقين المخلصين لا قدرة لك يا إبليس على إضلالهم، وكفى بربك وكيلًا يتوكلون عليه، ويفرضون أمورهم إليه، ويعتصمون به، فهو الحافظ والنصير لهم.

وفى سورة «ص» آيات كريمة[1] حكت هذه القصة بأسلوب يغلب عليه الحوار والتحدى، قال - تعالى -:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكة إِنِى خَالِقٌ بَشَرًا من طِين، فَإِذَا سَوَّيْتهُ ونَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا له سَاجِدِين، فَسَجد المَلائِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعُونَ، إلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، قَالَ يَا إِبْلِيسُ ما مَنَعَك أَنْ تَسْجُد لِما خَلَقْتُ بِيَدَىَّ، أَسْتَكْبرتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

أى: قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التأنيب والتقريع: يا إبليس ما الذى منعك من السجود لآدم الذى خلقته بيدى، وصورته بقدرتى التى لا يعجزها شىء؟

أمنعك: من السجود له تكبرك وصلفك، أم كنت ممن تطاول على غيره بدون حق؟

فكان جواب إبليس: ﴿أَنا خَيْرٌ مِنْه خَلَقْتَنى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَه مِنْ طِين﴾

(١) الآيات من ٧١ - ٨٣.

وقد رد الله - تعالى - على إبليس بقوله: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رجِيمٌ، وَإِنَّ عَليكَ لَعْنَتي إلى يَوْمِ الدِّينِ﴾. فكان جواب إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبعَثُونَ﴾

فأجابه - سبحانه - بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعلُومِ﴾.

فكرر إبليس على عداوته لآدم وذريته وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُم أجْمَعين. إلاَّ عِبادكَ منهمُ المخْلَصين﴾ وهنا جاء العقاب العادل من الله - تعالى - لإبليس، حيث قال سبحانه: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ والْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي: قال له الله - تعالى - في رده على إبليس: فالحق قسمي ويميني، ولا أقول إلا الحق.. لأملأن جهنم بك وبجنسك وبكل من تبعك يا إبليس، لأن هذا جزاء من عصاني والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يرى أن عنصر المحاورة فيها واضح كل الوضوح، فقد تكرر لفظ قال تارة من الله - تعالى -، وتارة من إبليس ثماني مرات.

حديث القرآن عن إغواء إبليس لآدم - عليه السلام -

تحدث القرآن الكريم في سور متعددة عن أن الله - تعالى - قد أمر آدم وزوجه بأن يسكنا الجنة، وأباح لهما أن يأكلا من جميع ثمارها، سوى شجرة واحدة نهاهما عن الأكل منها، ولكن إبليس أغراهما

بالأكل منها، واستطاع بوسوسته وخداعه لهما أن ينسيهما مانهاهما عنه ربهما فأكلا منها، فترتب على ذلك أن أخرجا من الجنة.

ومن الآيات التى تحدثت عن ذلك، قوله - تعالى - فى سورة البقرة[1]: ﴿وَقلْنا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وزوجكَ الْجَنَّة، وَكُلَا مِنها رَغَدًا حَيْثُ شِئتُما، ولا تَقْرَبا هَذِه الشَّجَرة فَتكونَا مِنَ الظَّالِمين﴾ أى: وبعد أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم - عليه السلام - وامتثلوا أمرنا جميعًا ما عدا إبليس، قلنا لآدم على سبيل التشريف، والتكريم: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة..

وجمهور العلماء يرون أن المراد بالجنة هنا: دار الثواب، التى أعدها الله - تعالى - للمؤمنين يوم القيامة، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق.

ويرى بعض العلماء أن المراد بالجنة هنا: بستان بمكان مرتفع من الأرض، خلقه الله - تعالى - لإسكان آدم وزوجه فيها.

وقوله - سبحانه -: ﴿وَكُلَا مِنْها رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ بيان لجانب آخر من فضل الله - تعالى - عليهما. أى: اسكن يا آدم أنت وزوجك الجنة، وقد أبحنا لكما أن تأكلا من ثمارها ومطاعمها أكلًا هنيئًا واسعًا، فى أى مكان منها أردتما.

ثم بين - سبحانه أنه نهاهما عن الأكل من شجرة معينة فقال: ﴿وَلَا تقْرَبَا هَذه الشَّجَرة فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

---

(١) الآيات من ٣٥ - ٣٨.

أي: كلا من الجنة أكلًا واسعًا هنيئًا، واحذر أن تأكلا من هذه الشجرة التى حددتها لكما، فإنكما إن خالفتما أمرى وأكلتما منها كنتما من الظالمين.

والتعبير بقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: القصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل منها، إذ فى النهى عن الاقتراب من الشيء، نهى عن التلبس به من باب أولى.

وقد تكلم المفسرون عن اسم هذه الشجرة ونوعها، فقيل: هى التينة، وقيل هى الكَرْم.. إلا أن القرآن الكريم لم يذكر نوعها، على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سوق القصة إلى بيانه.

وقد أحسن الإمام ابن جرير التعبير عن هذا المعنى فقال: والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله- تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين، لأن الله - تعالى - لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب. وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضرْه جهله به».

ooo

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا، فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

والفعل: «أزل» من الإزلال وهو الإزلاق والتنحية بعيدًا عن الشيء.

أي: فأوقعهما الشيطان فى الزلل، حيث أطاعاه فى وسوسته، ونسيا أمر ربهما، فترتب على ذلك أن أخرجهما الله - تعالى - من الجنة، التى كان يتنعمان بخيراتها وثمارها. وقوله - سبحانه -: ﴿وَقُلْنَا اهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُو وَلَكُمْ فىِ الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمتاعٌ إلى حِين﴾ الخطاب فيه لآدم وحواء وإبليس وقيل: لآدم وحواء وذريتهما.

أي: وقلنا لآدم وحواء وإبليس: انزلوا إلى الأرض متنافرين متباغضين يبغى بعضكم على بعض ولكم فيها منزل وموضع استقرار وتمتع بالعيش إلى أن يأتيكم الموت.

○ ○ ○

ثم حكى القرآن الكريم أن آدم قد بادر بطلب العفو والمغفرة من ربه فقال: ﴿فَتَلَقَّى آدمُ مِنْ رَبِّهِ كَلماتٍ فَتَابَ عَلَيْه إِنَّهُ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيُم﴾.

والمراد بهذه الكلمات - على أرجح الأقوال - ما أشار إليه القرآن فى سورة الأعراف، فى قوله - تعالى -: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمنا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرين﴾.

أي: فأخذ آدم من ربه - عز وجل - كلمات حكيمة، وتقبلها بصدق وإنابة، وسأل ربه أن يقبل توبته، فقبل - سبحانه - ذلك منه، أنه - سبحانه - هو الواسع الرحمة بعباده، الكثير القبول لتوبة التائبين.

○ ○ ○

وبعد أن أخبر القرآن في الآيات السابقة، أن الله - تعالى - قد أمر آدم وحواء وإبليس بالهبوط من الجنة، نراه بعد ذلك قد أعاد خبر الأمر بالهبوط فقال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وليست بهذه الإعادة للأمر بالهبوط من قبيل التكرار الذى يقصد به مجرد التوكيد، لأن المقصود بالأمر بالهبوط أولا، بيان ما يترتب على ذلك من كون بعضهم لبعض عدو.. والمقصود به فى هذه الآية، بيان ما يترتب عليه من تفصيل لحال المخاطبين، وانقسامهم إلى مهتدين وضالين.

أي: قلنا اهبطوا من الجنة جميعًا، وسيأتيكم منى على لسان رسلى ما يدلكم على طريق الحق والرشاد، فمن اتبع رسلى فيما أتوا به من عندى، فلا يصيبهم ما يخفيهم من المستقبل، ولا ما يجعلهم يحزنون على الماضى.

وشبيه بهذه الآيات فى بيان سكنى آدم الجنة، وإغواء الشيطان له، مما ترتب عليه خروجه من الجنة، قوله - تعالى - فى سورة الأعراف[1]: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا - أى: من ثمارها وخيراتها - وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أى: فألقى إبليس إليهما الوسوسة، أى: الحديث الخفى الذى يصرف الإنسان من الخير إلى الشر.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ أى: فعل هذه

(١) الآيات من ١٩ - ٢٥.

الوسوسة، وحرضهما على الأكل من الشجرة المحرمة، لتكون عاقبة ذلك، أن يظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما... ولم يكتف إبليس بهذه الوسوسة السيئة، بل قال لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

أى: قال لهما كذبًا وخداعًا: مانهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة، إلا كراهية أن تكون ملكين، أو تكونا من الخالدين الذين يسكنون فى الجنة ولا يموتون.

ثم حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة، أو بالقول المجرد، بل أضاف إلى ذلك القسم المؤكد فقال: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

أى: وأقسم لهما إنه لمن الناصحين المخلصين الذين يسعون لما فيه منفعتهما.

ثم بين - سبحانه - أن إبليس نجح فى خداع آدم وحواء فقال: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ...﴾.

أى: فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية، وأطمعهما فى غير مطمع بسبب ما غرهما به من القسم.

وقوله: ﴿دَلَّاهُمَا﴾ مأخوذ من التدلية، وأصله أن الرجل العطشان يدلى فى البئر بدلوه ليشرب من مائها، فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء..

والغرور: إظهار النصح مع إبطان الغش، وأصله من غررت فلانًا إذا خدعته.. ثم بين - سبحانه - الآثار السيئة التى ترتبت على هذه الخديعة من إبليس لآدم فقال: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوءَاتُهُمَا، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

أى: فلما أكلا من الشجرة المحرمة ظهر لهما ما يجب ستره من جسدهما، وهما عوراتهما، وأخذا يلزقان من ورق الجنة على عوراتهما لسترهما..

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ معاتبًا وموبخًا وقائلًا لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرة﴾ أى ألم أنهكما عن الأكل منها ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

وهنا التمس آدم وحواء من ربهما الصفح والمغفرة ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فرد الله - تعالى - عليهما بقوله: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ أى: من الجنة إلى ما عداها من الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أى: أنت يا آدم وذريتك ستستمر العداوة بينكم وبين إبليس وذريته إلى يوم الدين ﴿وَلَكُمْ﴾ جميعًا ﴿فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار ﴿وَمتَاعٌ﴾ أى: تمتع ومعيشة ﴿إِلَى حِينٍ﴾ انقضاء آجالكم.

﴿قَالَ فِيهَا﴾ أى: فى الأرض ﴿تَحيَوْنَ﴾ أى: تعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرجُونَ﴾ للحساب والجزاء، والثواب والعقاب.

وفى سورة «طه»[1] تصوير بليغ حكيم، لما وقع فيه آدم من خطأ بسبب نسيانه لأمر ربه، وبسبب وقوعه تحت تأثير إبليس عليه..

قال - تعالى - ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

أى: والله لقد عهدنا إلى آدم وأوصيناه ألا يأكل من شجرة معينة، من قبل أن نخبرك بذلك، فنسى العهد الذى أخذناه عليه بعدم الأكل منها، ولم نجد له عزيمة صادقة فى الثبات على ما أمرناه به أو نهيناه عنه.

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك بشىء من التفصيل الأسباب التى أدت إلى نسيان آدم وضعف عزيمته فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا - أى: إبليس - عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ بسبب حسده لكما ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أى: فاحذر طاعته، فإن طاعته ستؤدى بكما إلى الخروج من الجنة، فيترتب على هذا الخروج شقاؤكما وغمكما وتعبكما..

ثم بين - سبحانه - مظاهر الخير فى هذه الجنة فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾.

أى: إن لك يا آدم فى الجنة كل ما تريده وتشتهيه، فأنت فيها لا يصيبك شىء من الجوع، ولا شىء من العرى، ولا شىء من الظمأ، ولا شىء من حر الشمس فى الضحا..

---

(١) الآيات من ١١٥ - ١٢٣.

ثم بين - سبحانه - أن آدم مع تلك النصائح المؤكدة، نسى ما نهاه الله - تعالى - عنه، وتغلب عليه الشيطان فقال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ، هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾.

أى: قال الشيطان لآدم على سبيل الإغراء والخداع: هل أدلك يا آدم على الشجرة التى من أكل منها عاش مخلدًا لا يدركه الموت، وصار صاحب ملك لا ينتهى ولا يفنى.

وأطاع آدم الشيطان، ووقع تحت وسوسته وخداعه ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ أى: فأكل آدم وزوجه من الشجرة المحرمة.

﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾ أى: وخالف آدم أمر ربه فى اجتناب الأكل من الشجرة، فغوى، أى: فأخطأ آدم طريق الصواب، بسبب عدم طاعته لربه.

ثم بين - سبحانه - جانبًا من مظاهر فضله ورحمته فقال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ أى: ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة وندم على ما فعل هو وزوجه، اصطفاه ربه وقربه واختاره وقبل توبته، وهداه إلى الثبات عليها.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان ما آل إليه أمر آدم فقال: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾.

أى: انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين..

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أى: بعض ذريتكما لبعض عدو، بسبب التخاصم والتنازع، والتدافع على حطام الدنيا، وجميعكم أعداء لإبليس وذريته.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى﴾ عن طريق رسلى فعليكم أن تتبعوهم..

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ بأن آمن برسلى، واقتدى بهم فى كل ما يأتون وما يذرون.

﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

جانب من العبر والعظات
فى قصة آدم – عليه السلام –

اشتملت قصة آدم – عليه السلام – على كثير من الدروس النافعة، والعظات الحكيمة، التى تهدى القلوب، وتحيى النفوس، وتحمل العقول على حسن التدبر والتفكر، ومن أهم هذه الدروس ما يأتى:

الدلالة على كمال قدرة الله – تعالى – ، وبديع خلقه، وبليغ حكمته، حيث خلق – سبحانه – الإنسان من مادة تختلف عن المادة التى خلق منها الجان، وحيث كرم الإنسان بخاصية أخرى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله – تعالى –: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى﴾ وهذه الخاصية هى التى جعلت من هذا الإنسان، كائنا ينفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى التى تشاركه فى هذه الحياة.

كما يؤخذ من هذه القصة أن خلق الجان سابق على خلق الإنسان، بدليل قوله – سبحانه –: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَان مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، والْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾.
[سورة الحجر: الآيتان: ٢٦، ٢٧]

إن إرادة الله – تعالى – قد اقتضت أن يجعل فى الأرض خليفة هو آدم – عليه السلام –، وأنه – سبحانه – قد أخبر الملائكة بذلك، لا من أجل مشورتهم، فهو – سبحانه – لا يُسأل عما يفعل، وإنما من أجل أن يعلم الناس أن يتشاوروا فيما بينهم فى الأمور التى تحتاج إلى هذه المشورة.

وقد أمر الله – تعالى – نبيه محمدا – ﷺ – أن يستشير أصحابه فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾. [آل عمران: الآية ١٥٩]

كما وصف – سبحانه – الأخيار من عباده، بأنهم يتناصحون فيما بينهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِربهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ، وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. [الشورى: الآية ٣٨]

○ ○ ○

ومن الدروس التى تؤخذ من هذه القصة: أن الحرص على معرفة الحكمة من الأمر أو النهى لا بأس به، وأن الآمر بالشيء أو الناهى عنه، يجب عليه ألا يضيق صدره إذا ما طلب منه معرفة الحكمة فيما أمر به أو نهى عنه...

بدليل أن الملائكة عندما أخبرهم الله - تعالى - بأنه سيجعل فى الأرض خليفة، قالوا له على سبيل استطلاع الحكمة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وقد رد عليهم - سبحانه - بما يزيل تعجبهم، وبما يرشدهم إلى الحدود التى يجب عليهم أن يقفوا عندها فقال: ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا يعلمنا الله - تعالى - عن طريق قصصه الحكيم، أن الرئيس العاقل، هو الذى يفسح المجال لمرءوسيه المخلصين، ويترك لهم مجال المجادلة والمناقشة ومعرفة الحكمة، ولا يزيد على أن يبين لهم وجهة نظره فى رفق وأناة..

فإذا ما تجاوزوا الحدود المناسبة، راعى فى عتابهم ما عرفه فيهم من سلامة القلب، وتلقى أوامره بحسن الطاعة.

إن سياسة الأمم على الطريقة المثلى، إنما تقوم على أساس راسخ من العلم، وأن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة.

بدليل أن الملائكة الكرام، وهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، قد أمرهم الله - تعالى - بالسجود لآدم - عليه السلام -، وكان على رأس المزايا التى ميز الله - تعالى - بها آدم على الملائكة، أن منحه علمًا لم يمنحه لهم، فثبت بذلك أن فضيلة العلم النافع على رأس الفضائل التى تؤهل صاحبها للقيادة والرياسة.

ولقد مدح الله - تعالى - العلم والعلماء فى كثير من آياته القرآنية، ومن ذلك: أنه - سبحانه - قرنهم بملائكته فى الشهادة له بالوحدانية فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

[آل عمران: الآية ١٨]

وأنه - سبحانه - رفع درجاتهم إلى منزلة لا يعلمها أحد سواه فقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ.....﴾ [سورة المجادلة: الآية ١١]

وأنه - تعالى نفى المساواة بين العلماء وغيرهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

[سورة الزمر: الآية ٩]

وأنه - عز وجل - قصر خشيته والخوف منه على أهل العلم والمعرفة فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾.

[سورة فاطر: الآية ٢٨]

وأنه - سبحانه - أمر نبيه - ﷺ - أن يسأله المزيد من العلم النافع فقال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

[سورة طه: الآية ١١٤]

كما يؤخذ من هذه القصة كذلك، أن روح الشر الخبيثة إذا طغت على نفس من النفوس، جعلتها لا ترى البراهين الساطعة، ولا يوجهها إلى

الخير وعد، ولا يردعها عن الشر وعيد. فإبليس فسق عن أمر ربه عن تعمد وإصرار، وحمله الحقد الأعمى، والحسد الدفين، على الامتناع عن السجود لآدم - عليه السلام -، وحكى القرآن موقفه الذميم فى كثير من الآيات، ومن ذلك زعمه أنه خير من آدم ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وتارة يحكى القرآن صلفه وغروره: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وتارة يستنكر السجود لآدم فيقول - كما حكى القرآن عنه -: ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

وهكذا نرى أن إبليس لم يكتف بمعصية الله - تعالى - عن تعمد وإصرار بل تجاوز ذلك إلى التبجح والغرور، والزعم بأنه أفضل من آدم - عليه السلام -، وأنه لا يصح أن يسجد الفاضل للمفضول..

ولذا استحق من الله - تعالى - اللعن والطرد من رحمته - عز وجل -.

ooo

ومن الدروس التى تؤخذ من هذه القصة - أيضًا - أن العداوة بين إبليس وذريته، وآدم وذريته، عداوة قديمة، وأنها مستمرة إلى يوم القيامة.

وقد صرح إبليس بذلك فى كثير من الآيات القرآنية التى حكت جانبًا من أقواله، ومن ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه -: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

وَمِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَن أَيْمَانِهِم وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين﴾.
[الأعراف: الآيتان ١٦، ١٧]

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَن لَهُمْ فِى الأَرْضِ، وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخلَصِينَ﴾.
[الحجر: الآيتان ٣٩، ٤٠]

وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامة لأحتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً...﴾. [الإسراء: الآية ٦٢]

وقوله: ﴿قَالَ فَبِعزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُم أَجْمَعِين، إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِين﴾. [ص: الآيتان ٨٢، ٨٣]

وهكذا نرى فى كثير من الآيات، أن إبليس قد جاهر بعداوته لآدم وذريته، وأنه لن يترك طريقًا يوصل إلى شقائهم وغوايتهم وإضلالهم إلا سلكه... وقد حذر الله - تعالى - آدم وذريته من الانقياد لوسوسة إبليس فى كثير من الآيات، ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿يَابَنِى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهما لِبَاسَهُمَا لِيرِيَهُما سَوءاتِهما، إِنَّه يَرَاكُمْ هُوَ وقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُم، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِين لاَ يُؤْمِنُون﴾.
[الأعراف: الآية ٢٧]

وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذوهُ عَدُوًّا، إِنَّما يَدْعُو حِزْبَه لِيَكُونُوا منْ أَصحَابِ السَّعير﴾. [فاطر: الآية ٦]

كما يؤخذ - أيضا - من هذه القصة، أن المتقلب فى نعمة، يجب أن يحافظ عليها بشكر الله - تعالى -، ولا يعمل عملاً فيه مخالفة لأوامر الله، لأن مخالفة أوامره - سبحانه - كثيرًا ما تؤدى إلى زوال تلك النعمة....

فآدم - عليه السلام -، قد أسكنه الله - تعالى - فى جنته، وأباح له أن يأكل من خيراتها أكلاً هنيئًا مريئًا، ونهاه عن الأكل من شجرة معينة...

فلما نسى آدم أمر ربه، وأكل من الشجرة التى نهاه الله - تعالى - عن الأكل منها، واستجاب لوسوسة إبليس وخداعه....

كانت نتيجة مخالفته لأمر ربه، أن أخرج من الجنة، كما قال - تعالى -: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتَاعٌ إلى حِينٍ﴾. [البقرة: الآية ٣٦]

وهكذا يرشدنا - سبحانه - عن طريق قصصه؛ أن المحافظة على طاعة الله - تعالى - تؤدى إلى دوام النعمة، أما نسيان هذه الطاعة فكثيرًا ما يؤدى إلى زوالها..

وما أجمل قول الشاعر:

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

○ ○ ○

إن قوة الإيمان، تتغلب على كيد الشيطان، وأن عباد الرحمٰن الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، لا يستطيع إبليس إغواءهم أو التأثير فيهم..

ولقد اعترف إبليس بذلك، وحكى عنه القرآن هذا الاعتراف فى كثير من الآيات، ومن ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه -: ﴿قَالَ رَبِّ بما أَغْوَيْتَنِي لأزَيِّنَنَّ لَهُم فى الأَرْضِ وَلأغوِينَّهم أَجْمَعين. إلَّا عِبَادك مِنْهُمُ المخلَصِينَ، قَالَ هَذا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبَادى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ إلَّا مَنِ اتَّبعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

[الحجر: الآيات ٣٩ - ٤٢]

وقال سبحانه: ﴿إنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّك وَكِيلاً﴾. [الإسراء: الآية ٦٥]

ولقد بين لنا النبي - ﷺ - أن مخالفة الشيطان تؤدى إلى السعادة فى الدنيا والآخرة، فقد أخرج الإمام أحمد عن سيرة بن الفاكه قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلم.

ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له: أتهاجر وتدع أرضك... قال: فعصاه وهاجر.

ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له: هو جهاد النفس والمال، فتقاتل وتُقتَل فتنكح المرأة ويقسم المال.

قال: فعصاه فجاهد.

فقال رسول الله - ﷺ -: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقا على الله أن يدخله الجنة.

○ ○ ○

ومن الدروس التى تؤخذ من هذه القصة: أن آدم - عليه السلام - قد أخطأ فى أكله من الشجرة التى نهاه الله - تعالى - عن الأكل منها، ولكن هذا الخطأ لم يكن مقصودًا ولا متعمدًا، بل كان عن ضعف ونسيان..

ولقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله - سبحانه -: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

[سورة طه: الآية ١١٥]

أى: والله لقد عهدنا إلى آدم وأوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة، وكانت هذه الوصية من قبل أن يخالف أمرنا، ولكن آدم نسى عهدنا ووصايانا، ولم نجد له عزمًا ثابتًا فى الصبر والمداومة على التمسك بما كلفه به ربه - عز وجل -.

وكان من الواجب عليه أن يكون دائمًا ممتثلاً لما أمره به خالقه، ومبتعدًا عن كل ما نهاه عنه - سبحانه -، فإن من شأن الأخيار أن تقع أوامر الله - تعالى - ونواهيه، موقع الاهتمام التام من نفوسهم، بحيث يفعلون ما أمرهم به، ويجتنبون ما نهاهم عنه بكل دقة وحذر..

والذى حدث من آدم - عليه السلام - هو الغفلة عن الأخذ بالحزم فى استحضار النهى، وجعله نصب عينيه، حتى أدركه النسيان والضعف أمام

وسوسة الشيطان، ففعل ما نهاه ربه عنه وهو الأكل من الشجرة، دون أن يكون متعمدًا لمخالفة هذا النهى، فكانت عقوبته إفراجه من الجنة...

○ ○ ○

كذلك من الدروس الحكيمة التى نأخذها من هذه القصة: سعة رحمة الله - تعالى -، وعظيم فضله، وسابغ كرمه، وقبوله لتوبة التائبين..

فآدم - عليه السلام - بعد أن تاب إلى ربه مما وقع فيه وهو الأكل من الشجرة، قبل الله - تعالى - توبته، وغسل حوبته، ووفقه للمداومة على هذه التوبة..

قال - تعالى -: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

أى: ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة، وندم على فعله هو وزوجه، اصطفاه ربه وقربه واختاره، وقبل توبته، وهداه إلى الثبات عليها، فقد اعترف هو وزوجه بخطئهما، وقالا - كما حكى القرآن عنهما -: ﴿رَبَّنَا ظَلَمنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين﴾. فكانت نتيجة هذا الندم الصادق، أن شملهما الله - تعالى - برحمته، وغفر لهما ما فرط منهما، فضلاً منه - سبحانه - وكرمًا.

وبعد: فهذا جانب من قصة آدم - عليه السلام - كما حكاها القرآن الكريم، ومن العبر والعظات والدروس الحكيمة التى تؤخذ منها...

وهى دروس نافعة لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

وبالله التوفيق

قصة ابنى آدم: قابيل وهابيل

وردت هذه القصة فى آيات كريمة من سورة المائدة[1]، وفيها يقول الله - تعالى -:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ، قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ، إِنِّى أَخَافُ اللَّه رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ.....﴾.

○ ○ ○

لقد جاءت هذه الآيات الكريمة، فى أعقاب حديث طويل عن رذائل بعض أهل الكتاب، الذين خالفوا نبيهم موسى - عليه السلام -، وامتنعوا عن طاعته، وقالوا له بكل صلف وسوء أدب: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ والمقصود من كل ذلك، تسلية

(١) الآيات من ٢٧ - ٣٢.

الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه، وبيان أن الذين عصوا أنبياءهم واعتدوا عليهم، قد اقتفوا الطريق الذى سلكه قابيل فى عدوانه على أخيه هابيل..

والمعنى: واقرأ يا محمد على الناس، بالحق الذى لا يحوم حوله باطل، لكى يعتبروا ويتعظوا، قصة ابنى آدم وهما قابيل وهابيل، حيث قدم كل واحد منهما ﴿قُرْبَانًا﴾، أى صدقة يتقرب بها إلى الله - تعالى -؛ فتقبل الله - عز وجل - صدقة هابيل، لصدقه وإخلاصه، ولم يتقبل صدقة قابيل لسوء نيته وعدم تقواه فقال قابيل على سبيل الحسد والظلم لأخيه هابيل: لأقتلنك بسبب قبول صدقتك دون صدقتي...

فكان رد هابيل المخلص التقى، على أخيه قابيل الظالم الحسود: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: إنما يتقبل الله - تعالى - الطاعات والصدقات، من عباده المتقين الذين يخشونه فى السر والعلن، وليس من سواهم من الظالمين والحاسدين لغيرهم على ما آتاهم الله من فضله، فعليك أن تكون من المتقين لكى يتقبل الله - تعالى - منك.

فأنت ترى أن رد هابيل على أخيه قابيل، قد اشتمل على أسمى ألوان النصيحة، وأحكم أنواع الإرشاد، حيث بين له الوسيلة التى تجعل صدقته مقبولة عند الله - تعالى -، ألا وهى التقوى وصيانة النفس عن كل ما لا يرضاه - سبحانه -.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف كان قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ جوابا لقوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾؟.

قلت: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه، هو الذى حمله على توعده له بالقتل، أجابه بقوله: «إنما أتيت من قِبَل نفسك، لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قِبَلى فلماذا تقتلنى؟ وما لك لا تعاتب نفسك، ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول؟ فأنت ترى أن هابيل قد رد على أخيه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان.

وفيه دليل على أن الله - تعالى - لا يقبل طاعته إلا من مؤمن متق».

O O O

ثم انتقل هابيل من وعظ أخيه بتطهير قلبه، إلى تذكيره بما تقتضيه الأخوة من بر وتسامح، فقال - كما حكى القرآن عنه -: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالمينَ﴾.

أى: قال هابيل لقابيل مذكرًا إياه بحقوق الأخوة: لئن مددت إلى يدك بالاعتداء والقتل ظلمًا وحسدًا، فأنا لن أقابل فعلك بمثله حتى ولو كنتُ قادرًا على ذلك، لأنى أخاف الله - تعالى - رب العالمين، وأكره أن يرانى - سبحانه - باسطًا يدى إليك بالقتل، إذ القتل جريمة منكرة، ولا سيما إذا حدثت بين أخوين...

والمتدبر فى كلام الأخوين يرى أن قابيل قد أكد تصميمه على القتل بجملة قسمية، وهى ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾، ويرى أن هابيل قد أكد نفوره من القتل بجملة قسمية - أيضًا - وهى قوله - تعالى -: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ......﴾.

وهكذا نرى الفرق الشاسع بين الأخوين فى الأخلاق والسلوك والطابع.

ثم انتقل هابيل إلى أسلوب آخر فى وعظه لأخيه، إذ أخذ يحذره من سوء المصير للقاتل، فقال: ﴿إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ، فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

أى قال هابيل لقابيل محذرًا وزاجرًا: لقد بينت لك أن الله - تعالى - إنما يتقبل من عباده المتقين، فعليك أن تكون منهم، وأرشدتك على حقوق الأخوة وما تقتضيه من تسامح ومحبة، وأعلنت لك أن خوفى من الله هو الذى يمنعنى من أن أمد يدى إليك بالقتل دفاعًا عن نفسى....

وأخيرًا أبين لك: إنى أريد بامتناعى عن قتلك، وبتصميمك على قتلى، أن تبوء بإثمى وإثمك، أى: إنى أريد أن ترجع إلى الله - تعالى - وأنت متحمل ذنب قتلك إياى ظلمًا وحسدًا، وذنب إصرارك على هذا القتل وعدم قبولك لنصائحى..

فتكون بسبب هذين الذنبين من أصحاب النار فى الآخرة، وذلك العقاب العادل، جزاء الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم، وظلموا غيرهم.

وإلى هنا نرى أن هابيل قد وجه إلى أخيه عددًا من النصائح الحكيمة، بأساليب متنوعة فيها الترغيب وفيها الترهيب...

ولكن قابيل لم يستمع إلى تلك النصائح، بل أقدم على جريمته النكراء، التى حكاها القرآن الكريم فى قوله - تعالى -: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ

قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

قال القرطبى: قوله - تعالى -: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ...﴾ أى: فسولت له نفسه الأمر، وشجعته وصورت له أن قتل أخيه طَوْعٌ سهل. يقال: طاع الشىء يطوع، أى: سهل وانقاد.....»[1].

والمعنى: أن قابيل سهلت له نفسه وزينت له - بعد هذه المواعظ - قتل أخيه هابيل، فقتله فأصبح من الخاسرين فى دنياه وفى أخراه.

أصبح من الخاسرين فى دنياه، لأنه قتل أخاه، والأخ سند لأخيه، وعون له....

وأصبح من الخاسرين فى الآخرة، لأنه ارتكب جريمة من أبشع الجرائم وأفظعها ألا وهى جريمة القتل.. والتعبير بقوله - تعالى -: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾: تعبير دقيق بليغ، فإن هذه الصيغة - صيغة التفعيل - تشير إلى أنه كانت هناك بواعث متعددة تتجاذب نفس قابيل، قبل الإقدام على قتل أخيه، ولكن نوازع الشر فى نفسه، تغلبت على دوافع الخير...

وقد صور الإمام الرازى هذا المعنى تصويرًا حسنًا فقال: قال المفسرون: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ أى: فسهلت له نفسه قتل أخيه.

وتحقيق الكلام أن الإنسان إذا تصور من القتل العمد، العدوان، وكونه من أعظم الكبائر، فهذا الاعتقاد يصير صارفًا له عن فعله، فيكون هذا الفعل كالشىء العاصى المتمرد عليه، الذى لا يطيعه بوجه ألبتة.

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص١٣٨.

فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها، صار هذا الفعل سهلاً عليه، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل الشنيع كالمطيع له، بعد أن كان كالعاصى المتمرد عليه. فهذا هو المراد بقوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾[1].

ooo

ثم حكى القرآن ما حدث بعد أن قتل الأخ أخاه فقال: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مثل هَذَا الْغُرَابِ فَأُوارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

والمعنى: أن قابيل بعد أن ارتكب جريمته الشنعاء، ورأى جثة أخيه هابيل أمامه ملقاة بالعراء، تحير ماذا يفعل فيها....

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: فأرسل الله - تعالى - غرابا يحفر وينبش بمنقاره ورجليه فى الأرض ﴿لِيُرِيَهُ﴾ أى: ليعلِّم ذلك القاتل ويعرِّفه ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أى: كيف يستر فى التراب جسم أخيه بعد أن فارقته الحياة، وأصبح عرضة للتغير والتعفن، وفريسة للحيوانات والطيور...

وهنا أدرك قابيل التحسر والندم فقال: ﴿يَاوَيْلَتَى﴾ أى: يا فضيحتى ومصيبتى، ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ أى: أضعفت حيلتى

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١١ ص٢٠٧.

عن أكون مثل هذا الغراب فأستر جسد أخى فى التراب، كما دفن الغراب بمنقاره ورجليه ما يريد دفنه؟ والاستفهام فى قوله - تعالى -: ﴿أَعَجَزْتُ﴾ للتعجيب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب، مع أنه إنسان فيه عقل، والغراب طائر من أخس الطيور.

وقوله - سبحانه -: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾: تذييل قصد به بيان ما أصاب قابيل بعد أن قتل أخاه عدوانًا وحسدًا، ولم يعرف كيف يستر جثته إلا من الغراب. أى: فأصبح قابيل من النادمين المتحسرين المتأسفين لقتله أخاه ظلمًا وحسدًا.

ο ο ο

هذه هى قصة ابنى آدم قابيل وهابيل، كما وردت فى القرآن، والمتدبر فيها يرى ألوانا من العظات الحكيمة، والعبر البليغة، والدروس المفيدة التى من أهمها:

- أن هذا القرآن من عند الله - تعالى -، لأن هذه القصة وأمثالها لم يكن للرسول - ﷺ - علم بها، وإنما أخبره الله - تعالى - بها وبغيرها، بهذا الأسلوب البليغ المؤثر، وبهذا البيان الصادق الأمين، لينتفع العقلاء بما فى هذا القصص من هدايات وعظات وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ο ο ο

- أن تقوى الله - تعالى - وإخلاص النية له - سبحانه - فى الأقوال

والأعمال، أساس القبول عنده - عز وجل -.

ومن الأدلة على ذلك قوله - سبحانه -: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وقوله - عز وجل -: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قيل يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم».

ومن كل ذلك يتبين لنا صدق ما حكاه القرآن الكريم عن هابيل وهو ينصح أخاه قابيل بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

○ ○ ○

أن الناس فى كل زمان ومكان، فيهم الأخيار الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، وفيهم الأشرار الذين إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا.. أما الأخيار فنراهم بوضوح فى شخص «هابيل» الذى حكى عنه القرآن الكريم، أنه نصح أخاه بتلك النصائح الحكيمة.

نصحه - أولا - بتقوى الله لكى يقبل عمله، ونصحه - ثانيا - بمراعاة حقوق الأخوة وما تستلزمه من بر وحب، ونصحه - ثالثا - بعدم الإقدام على تلك الجريمة النكراء وهى القتل...

وأما الأشرار فنراهم بوضوح - أيضًا - فى شخص «قابيل» الظالم الحقود، الذى لم يستمع إلى نصائح أخيه له، بل تغلبت عليه شقوته فأقدم على قتل أخيه، بدافع الغل والحسد..

أن رذيلة الحسد إذا تمكنت من النفس أوردتها المهالك، وزينت لها البغى والطغيان، والإثم والعدوان...

وفى قصة ابنى آدم نرى هذا المعنى واضحًا، فإن حسد قابيل لهابيل على رأس الأسباب التى حملته على قتله، وكان هذا القتل من الأخ لأخيه هو أول جريمة قتل على ظهر الأرض، قال الآلوسى: «أخرج الشيخان عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تُقتَل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها - أى: نصيب من دمها -، لأنه أول من سنّ القتل».

وأخرج ابن جرير والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: «إنَّا لنجد ابن آدم القاتل، يقاسم أهل النار العذاب، عليه شطر عذابهم»[1].

والآية الكريمة التى جاءت فى أعقاب هذه القصة، أشارت إلى شناعة جريمة القتل، قال - تعالى -: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ - أى: من أجل قتل قابيل لأخيه هابيل حسدا وظلما ومن أجل ما يترتب على القتل بغير حق من مفاسد - كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ - أى: من قتل نفسا واحدة من النفوس البشرية بغير موجب للقتل - أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا - أى: تسبب فى إحيائها - فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾.

ooo

(١) تفسير الألوسى جـ٦ ص١١٥.

أن ندم الإنسان على ما وقع منه من أخطاء، لا يرفع عنه العقوبة، لأن هذا الندم أمر طبيعى يحدث لكثير من الناس فى أعقاب ارتكابهم للشرور والقبائح..

أما الندم الذى قد يرفع العقوبة عن الإنسان عند الله - تعالى -، فهو الذى تعقبه التوبة الصادقة، التى تجعل الإنسان يعزم عزمًا أكيدًا على عدم العودة إلى ما نهى الله - تعالى - عنه فى الحال أو الاستقبال، والتأسف على ما كان منه فى الماضى، ورد المظالم إلى أهلها..

○○○

قصة نوح - عليه السلام -

وردت قصة نوح - عليه السلام - مع قومه، فى سور متعددة منها: سور الأعراف، ويونس، وهود، والمؤمنون، والشعراء، ونوح...

وينتهى نسب نوح إلى آدم - عليهما السلام -، وقد ذكروا أن المدة بينهما تقارب ألف سنة. وتكرر ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعًا.

وكان قوم نوح - عليه السلام - يعبدون الأصنام، فأرسل الله - تعالى - إليهم نوحًا، ليرشدهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده، وينهاهم عن عبادة أحد سواه.

قال الإمام ابن كثير: قال ابن عباس وغيره من علماء التفسير: كان أول ما عبدت الأصنام، أن قوما صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكر ما حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان، جعلوا أجسادًا على تلك الصور، فلما تمادى الزمان، عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين. وُدًّا، وسُواعا، ويَغُوثَ، ويَعُوقَ، ونَسرْا...

فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحًا، فأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده....»[1].

○○○

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٣٢.

ومن الآيات التى تحدثت عن قصة نوح مع قومه، قوله - تعالى - فى سورة الأعراف[1]:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ....﴾.

أى: لقد أرسلنا عبدنا نوحًا إلى قومه بعد أن عكفوا على عبادة الأصنام -، فقال لهم بتلطف وأدب: يا قوم ويا أهلى وعشيرتى، اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، فإنى أخاف عليكم إذا ما سرتم فى طريق الشرك والضلال، عذاب يوم القيامة، الذى لا توصف أهواله فى الشدة والعظم.

بهذا الأسلوب المقنع المهذب دعا نوح - عليه السلام - قومه. فماذا كان ردهم عليه؟

لقد ردوا عليه ردًّا قبيحًا، حكاه القرآن فى قوله - تعالى -: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ، إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

ولفظ «الملأ»: يطلق على أشراف القوم وزعمائهم، وسموا بذلك لأنهم يملأون العيون مهابة. وقيل: هم الرجال ليس فيهم نساء.

أى: قال الأغنياء والزعماء من قوم نوح - عليه السلام - فى الرد عليه: يا نوح إنا لنراك بسبب أمرك لنا بعبادة غير آلهتنا، فى انحراف واضح عن الطريق الذى نعتقد استقامته، ورحمه الله الإمام ابن كثير فقد

---

(١) الآيات من ٥٩ - ٦٤.

قال عند تفسيره لهذه الآية: «وهكذا حال الفجار. إنهم - لانطماس بصائرهم - يرون الأبرار فى ضلالة. كما قال - تعالى - فى شأن الكافرين: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُم قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾.

- أى: وإذا ما رأى الكافرون المؤمنين قالوا عنهم: إن هؤلاء المؤمنين لضالون، لأنهم تركوا ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم -

○○○

ثم حكى القرآن الكريم أن نوحًا - عليه السلام - قد دفع عن نفسه هذا الاتهام الباطل بأسلوب عف حكيم فقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فأنت ترى أن نوحًا - عليه السلام - قد نفى عن نفسه أدنى شيء مما يسمى بالضلال الذى اتهموه به، فضلًا عن الضلال فى ذاته، حيث قال لهم: يا قوم ليس بى أقل شيء مما رميتمونى به... ثم وصف نفسه بعد ذلك بأربع صفات كريمة:

أولها قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: قال لهم أنا لا يوجد بى شيء من الضلال، ولكنى رسول إليكم من رب العالمين، لآمركم بعبادته وحده، وأنهاكم عن عبادة غيره.

وثانيها قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ أى: أبلغكم ما أوحاه الله - تعالى - إلىّ من الأوامر والنواهى، والمواعظ والزواجر...

وثالثها قوله: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ أى: وأتحرى فى إبلاغكم النصيحة التى فيها صلاحكم وسعادتكم.

ورابعها قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: وقد أعلمنى الله - بفضله وإحسانه - من الأمور مالا تعلمونه أنتم، فأنا أحذركم عن علم، وأنذركم عن بينة...

○ ○ ○

وبعد أن نفى نوح عن نفسه ما وصفوه به من ضلال، وأثبت لنفسه تلك الصفات الأربع، أخذ ينكر عليهم استبعادهم أن يخصه الله -تعالى- بالنبوة فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ، وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

والمعنى: أكذبتمونى واتهمتمونى بالضلال، وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم، على لسان رجل منكم، تعرفون مولده ونشأته وصدقه، ليخوفكم من سوء عاقبة الكفر، وليأمركم بتقوى الله - تعالى - وخشيته، وليبشركم بالرحمة والمغفرة إذا ما أخلصتم عبادتكم لخالقكم؟.

والاستفهام هنا للإنكار والتعجيب من حالهم.

أى: إن كان عجبكم من أنى قد جئتكم بما يصلحكم، فأنتم فى هذه الحالة الذين تستحقون أن يتعجب منكم!!.

وإلى هنا نكون قد عرفنا جانبًا من أسلوب نوح - عليه السلام - فى دعوته لقومه، وقد كانت نتيجة مواقفهم، القبيحة معه أن أغرقهم الله

- تعالى - حيث قال - سبحانه -: ﴿فَكَذَّبُوهُ، فَأَنْجَينَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

أى: فكذب هؤلاء القوم نبيهم نوحًا، فكانت نتيجة ذلك، أن نجى الله نوحًا ومن معه من الغرق، وأغرق - سبحانه - الكافرين من قومه، لأنهم كانوا عُمْىَ البصائر عن الحق والإيمان وهذه سنة الله - تعالى - فى خلقه أن جعل حسن العاقبة للمؤمنين، وسوء المصير للكافرين.

○ ○ ○

وفى سورة «يونس»[1] آيات كريمة، حدثتنا عن جانب من قصة نوح - عليه السلام -، حديثًا يبرز لنا تصميمه على تبليغ رسالة الله - تعالى -، وهذه الآيات هى قوله - تعالى -: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللَّهِ، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُم وَشُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً، ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ.....﴾.

أى: واتل - يا محمد - على مسامع المشركين من قومك، قصة نوح - عليه السلام - مع قومه، حيث قال لهم بكل ثبات وثقة: يا قوم، إن كان قد شق وعظم عليكم مقامى فيكم، ووجودى بين أظهركم زمنًا طويلًا، وتذكيرى إياكم بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته... إن كان قد شق عليكم ذلك، فأجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد بى، ثم ادعوا

---

(١) الآيات ٧١ - ٧٣.

شركاءكم وأصنامكم ليشاركوكم فى ذلك، ثم لا يكن أمركم الذى أجمعتم على تنفيذه، فيه شىء من الستر أو الخفاء أو التردد، ثم أبلغونى بما تريدون إنزاله بى من أذى أو قتل، بدون إنظار أو إمهال، فأنا لست خائفًا من وعيدكم أو تهديدكم..

فأنت ترى أن نوحًا - عليه السلام - قد تحدى قومه بأنه ماض فى طريق دعوته، دون أن يصرفه عن ذلك تهديدهم له، أو سفاهتهم معه...

ثم يواصل نوح - عليه السلام - حديثه مع قومه، بعد هذا التحدىٰ السافر لهم فيقول: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: فإن أعرضتم عنى وعن دعوتى ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلى اللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أى: أنا لا أطالبكم بأجر على دعوتى لكم إلى الحق، بل أطلب الأجر من الله - تعالى - وحده، فهو - سبحانه - الذى أمرنى أن أكون ممن أسلموا وجوههم لذاته.

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة نوح، وسوء عاقبة الذين كذبوه فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ، فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ، وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ﴾.

أى: وجعلنا هؤلاء الناجين خلفاء فى الأرض لأولئك المغرقين ﴿فَانْظُرْ﴾ أيها العاقل ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذرِينَ﴾؟ لقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الطوفان، ونجى الله - تعالى - ونوحا ومن معه من المؤمنين.

○ ○ ○

وفى سورة هود[1] وردت قصة نوح - عليه السلام - بصورة أكثر تفصيلاً، فقد تحدثت عن دعوة نوح لقومه، وعن المحاورات التى دارت بينه وبينهم، وعن أمر الله - تعالى - له بصنع السفينة، وعن سخرية قومه منه، وعن غرق ابنه مع الغارقين.

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قومه إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا الله إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ، فقال الْمَلأُ الَّذِين كَفروا مِنْ قوْمه، مَانَراكَ إِلَّا بَشَرًا مِثلَنَا، ومَا نَّراكَ اتَّبعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلنَا بَادِىَ الرَّأْىِ، وَمَا نَرى لَكُمْ عَلينَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُكُمْ كَاذِبين﴾.

أى: لقد أرسلنا رسولنا نوحًا إلى قومه ليأمرهم بإخلاص العبادة لنا، ولينهاهم عن الكفر والضلال، فحذرهم وأنذرهم، ورغبهم ورهبهم.

ولكن الأغنياء والزعماء من قومه قالوا له على سبيل السخرية: ما نراك إلا بشرا مثلنا، فليست فيك مزية تجعلك مختصا بالنبوة دوننا.

فهم - لجهلهم وغبائهم - توهموا أن النبوة لاتجامع البشرية، مع أن الحكمة تقتضى أن يكون النبى واحدًا منهم حتى يفهموا عنه.

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم: ومانراك اتبعك إلا الذين هم فقراؤنا، وأقلنا شأنًا، وأحقرنا حالاً، من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك، أو أنهم اتبعوك ظاهرًا لا باطنًا. ثم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة، مزاعم أخرى

---

(١) الآيات من ٢٥ - ٤٨

فقالوا: وما نرى لكم علينا من زيادة لا فى العقل ولا فى غيره، بل الذى نعتقده أنكم كاذبون.

ooo

وهنا نجد نوحًا - عليه السلام - يرد عليهم ردًا حكيمًا يزهق باطلهم فيقول: ﴿قَالَ يَا قوم أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بينة مِنْ رَبِّي، وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ، فَعُمِّيتْ عَلَيْكُمْ، أَنُلزِمُكُمُوها وَأَنْتُم لَهَا كَارِهُونَ﴾.

أى: قال نوح لقومه: أخبرونى إن كنت على بصيرة من أمرى، وحجة واضحة من ربى، بها يتبين الحق من الباطل، ومنحنى الله - تعالى - النبوة التى هى - رحمة منه، فخفيت عليكم، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها..

أأستطيع أنا بعد أن تبلدت عقولكم، وركبكم العناد، أن ألزمكم برأيى، وأن أجبركم على اتباع الحق وأنتم له كارهون.

مما لا شك فيه أنى لا أستطيع ذلك، لأنى لست عليكم بجبار.

ثم وجه نوح عليه السلام - إلى قومه نداء ثانيًا فقال: ﴿وَيَا قَوْم لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه مَالًا﴾ أى: لا أسألكم أجرًا على دعوتى إياكم إلى الحق ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ تعالى وحده.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الذين آمَنوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبهِم وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَومًا تَجْهَلُونَ﴾.

أى: وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتى سواء أكانوا فقراء أم أغنياء، لأن الله - تعالى - سيحاسب الجميع على أعمالهم، ولكنى مع هذا البيان

الواضح أراكم قومًا تجهلون ما هو واضح، لغبائكم وسفاهتكم وقلة إدراككم.

ثم وجه إليهم نداء ثالثا: فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُم أَفَلا تَذَكَّرون﴾.

أى: ويا قوم من يستطيع أن يجيرنى من عذاب الله - تعالى - إن طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء عن مجلسى، أفلا تتذكرون هذا الإرشاد الحكيم؟!!

ثم أخذ نوح - عليه السلام - بعد هذه النداءات لقومه، يفند شبهاتهم شبهة بعد أخرى فيقول: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنِ اللهِ، ولَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، ولَا أَقُولُ إِنِّى ملَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنكُمْ لَنْ يُؤْتِيهُمُ الله خَيْرًا، الله أَعْلَمُ بِما فى أَنْفُسِهِم إِنِّى إِذًا لِمَنَ الظَّالِمين﴾

أى: وأنا فضلًا عن كل ذلك، لا أقول لكم بأنى أملك خزائن الأرزاق، ولا أقول لكم بأنى أعلم الغيوب التى لا يعلمها إلا الله - عز وجل -، ولا أقول لكم كذلك بأنى ملك من الملائكة، وإنما أنا بشر مثلكم إلا أن الله - تعالى - قد اختصنى بالنبوة.

ولا أقول لكم - أيضا - فى شأن الذين تحتقرونهم لفقرهم، إن الله - تعالى - لن يؤتيهم خيرًا كثيرًا من فضله وكرمه، فهو - سبحانه - هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أو شر. ولو قلت لكم شيئًا من ذلك، لكنت من الظالمين لأنفسهم.

وهكذا نجد نوحًا - عليه السلام- يجادل قومه بهذا الأسلوب المقنع الحكيم، فيرد شبههم، ويزيل أباطيلهم، ويأتى على بنيانهم من القواعد.

○○○

وعندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على نوح - عليه السلام - بأسلوب الحجة بالحجة، لجأوا إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم -: ﴿يَا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا، فَأْتِنَا بِما تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين﴾

أى: قال الكافرون من قوم نوح له بعد أن غلبتهم الحجة: يا نوح قد خاصمتنا حتى لم تترك لنا مجالاً للرد عليك فأتنا بما تعدنا به من العذاب، إن كنت من الصادقين فى كلامك. وهكذا شأن الجاهلين المعاندين، إنهم يشهرون السيف فى وجوه الناس، إذا أعجزتهم الحجة، ويعلنون التحدى والعناد إذا يئسوا من مواجهة الحق.

ولكن نوحًا - عليه السلام - لم يخرجه هذا التحدى عن سمته الكريم، وإنما رد عليهم بكل أدب بقوله: ﴿إِنَّما يَأْتِيكُمْ به الله إن شَاءَ وَمَا أَنتمْ بِمُعْجِزِينَ، وَلاَ يَنْفَعُكُم نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ الله يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرجَعُونَ﴾.

أى: قال نوح لقومه بكل تواضع وأدب: يا قوم إن الذى يأتيكم بالعذاب الذى تستعجلونه هو الله تعالى - وحده، وإذا أنزله بكم فلن تستطيعوا الهروب منه:

وإنى قد دعوتكم إلى الحق بكل أسلوب، ولم أقصر معكم فى النصيحة، ومع ذلك فإن نصحى لن يفيدكم شيئًا مادمتم مصرين على كفركم.

وإذا كان الله - عز وجل - قد أراد إضلالكم فلن أملك لكم من الأمر شيئًا، فهو - سبحانه - الذى بيده أموركم وأحوالكم، وهو سبحانه - ربكم وإليه مرجعكم وسيحاسبكم على أعمالكم .

وهكذا نجد نوحًا - عليه السلام - قد سلك فى دعوته إلى الله، أحكم السبل، واستعمل أبلغ الأساليب، وصبر على سفاهة قومه صبرًا جميلاً.

○ ○ ○

ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك، أن الله - تعالى - قد أوحى إلى نبيه نوح - عليه السلام - أن قومه لا أمل فى إيمانهم، ولا خير يرتجى منهم فقال - سبحانه -: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

أى: وبعد أن لج قوم نوح فى طغيانهم، أوحى الله تعالى - إلى نبيه نوح، بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين، فإنه لم يبق فى قومه من يتوقع منه الإيمان، وعليه ألا يحزن بسبب إصرارهم على الكفر، ثم أمره - سبحانه - بأن يصنع سفينة ضخمة، لتكون وسيلته هو ومن آمن معه فى النجاة من العذاب الذى سيصيب أعداءه فقال - تعالى -: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا - أى: برعياتنا وقدرتنا - وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

أى: ولا ترجونى يانوح فى رحمة هؤلاء الظالمين، فقد صدر قضائى

بإغراقهم ولا راد لقضائى ثم حكى القرآن ما كان من شأن نوح بعد ذلك فقال: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ، وَكُلَّمَا مر عَلَيْهِ مَلأ مِنْ قَوْمِهِ سَخِروا مِنْهُ، قَالَ إِنْ تَسْخَروا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ منكُمْ كَما تَسخرونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيه، وَيَحلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

أى: وامتثل نوح لأمر ربه، فأخذ يصنع السفينة، فكان الكافرون من قومه كلما مروا به وهو يصنعها سخروا منه، واستهزءوا.

فكان جوابه عليهم: إن تسخروا منا اليوم، فإنا سنسخر منكم فى الغد القريب، وسوف تعلمون عما قريب، من منا سينزل عليه العذاب الذى يخزيه ولا يتحول عنه.

ooo

ثم حكت الآيات بعد ذلك أن نوحًا - عليه السلام - قد حمل فى السفينة من كل صنف ذكرًا وأنثى، وسارت السفينة به وبمن معه من المؤمنين فى موج كالجبال.

قال - تعالى -: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَار التَّنُّورُ، قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمنَ، وَمَا آمَن مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾.

والمعنى: لقد امتثل نوح أمر ربه له بصنع السفينة، حتى إذا ما تم صنعها، وحان وقت نزول العذاب بالكافرين من قومه، وتحققت العلامات الدالة على ذلك، قال الله تعالى - لعبده نوح عليه السلام -

أحمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرًا وأنثى، واحمل فيها من آمن بك من أهل بيتك، وكذلك جميع المؤمنين.

ثم حكى - سبحانه - ما قاله نوح للمؤمنين عند ركوبهم السفينة فقال: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاها، إنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، وَهِىَ تَجْرِى بِهِم فى مَوْجٍ كَالْجِبال، وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أى: ونادى نوح ابنه الكافر وكان فى مكان منعزل عن جماعة المؤمنين فقال له بعاطفة الأبوة الحانية - ﴿يَابُنَىَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ﴾ - أى: الابن الكافر - سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصمنى مِنَ الْمَاءِ قَالَ﴾ - أى: نوح - عليه السلام -: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَومَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ، وَحَالَ بَيْنَهما الْمَوجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

أى: قال نوح لابنه: لا معصوم اليوم من عذاب الله إلا من رحمه الله - تعالى - بلطفه وإحسانه، وفصل الموج بهديره بين نوح وبين ابنه، فكانت النتيجة أن صار الابن الكافر من بين المغرقين. وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة، ما دار بين نوح وابنه من محاورات، فى تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة، التى يبذل فيها كل أب ما يستطيع بذله من جهود، لنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم.

○○○

وبعد أن أغرق الله - تعالى - الكافرين، ونجى المؤمنين، وجه - سبحانه - أمره إلى الأرض والسماء فقال: ﴿وَقِيل يا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ﴾ أى: اشربى أيتها الأرض ما على وجهك من ماء - ﴿وَيَا سَماءُ

أقلعى﴾ - : كُفِّى عن إرسال المطر - ﴿وغِيضَ الماءُ﴾ - أى: نضب ونقص.. ﴿وَقُضِىَ الْأَمْرُ﴾ أى - بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين - ﴿واسْتَوتْ عَلَى الْجُودِىِّ﴾ - أى: واستقرت السفينة على الجبل المسمى بهذا الاسم بشمال العراق.

﴿وَقِيل بُعْدًا لِلْقَومِ الظَّالِمِينَ﴾ - أى: هلاكًا وبعدًا للقوم الظالمين. ثم ختم - سبحانه - قصة نوح مع قومه فى هذه السورة، بتلك الضراعة التى تضرع بها نوح إلى ربه بشأن ولده فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَال، رَبِّ إِنَّ ابنِى مِنْ أَهْلِى - لأنه قطعة منى فارحمه برحمتك - وَإن وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمينَ﴾.

أى وإن كل وعد تعده لعبادك هو الوعد الحق، وأنت يارب قد وعدتنى بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم، لكنى فى هذا الموقف العصيب أطمع فى عفوك عن ابنى وفى رحمتك له، فأنت يا إلهى لا راد لحكمك، ولا معقب لأمرك.

وهنا أجابه - سبحانه - بقوله: ﴿يَا نُوحُ إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إنه عَمَلٌ غَيرُ صَالِح﴾ أى: قال الله - تعالى - لنوح: يانوح إن ابنك ليس من أهلك المؤمنين الذين وعدتك بنجاتهم، فإنه قد عمل فى دنياه الأعمال السيئة التى أشنعها الإصرار على الكفر.

﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكونَ مِنَ الْجاهِلِين﴾

أى: فلا تسألن مالا علم لك به على وجه اليقين أصواب هو أم خطأ،

بل عليك أن تتثبت من صحة ما تطلبه قبل أن تقدم على طلبه، وإنى أنهاك أن تكون من القوم الجاهلين، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها.

وهنا بادر نوح إلى طلب العفو والمغفرة من ربه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى أَعُوذُبِكَ أَنْ أَسْأَلَك مَا لَيْسَ لِى به عِلْمٌ، وإِلَّا تَغْفِر لِى وَتَرْحَمْنى أَكُنْ مِنَ الخَاسِرين﴾.

أى: قال نوح ملتمسا العفو من ربه: يارب إنى أعوذ بك، وأحتمى بجنابك، من أن أسألك شيئًا بعد الآن، ليس عندى علم صحيح بأنه جائز ولا ثق وإلا تغفر لى. ما فرط منى من قول وترحمنى برحمتك الواسعة «أكن من الخاسرين» لأنفسهم.

وختم الله – تعالى – هذه القصة ببشارة نوح – عليه السلام – بما يسره ويرضيه فقال: ﴿قِيلَ يا نوح اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا، وبركاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَم مِمَّنْ مَعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمتعُهم، ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أى: قال الله – تعالى – لنبيه نوح – عليه السلام –: يا نوح اهبط من السفينة مصحوبًا منا بالأمان مما تكره، وبالخيرات النامية والنعمة الثابتة عليك وعلى أتباعك وأتباع أتباعك المؤمنين، وهناك أمم أخرى سنمتعهم بنعمنا فى الدنيا، ثم يمسهم منا عذاب أليم فى الآخرة، بسبب جحودهم لنعمنا، وعدم شكرنا عليها.

وهكذا نجد أن سورة هود – عليه السلام – قد ساقت لنا جانبًا من قصة نوح مع قومه، بصورة أكثر تفصيلاً لها من غيرها.

وفى سورة «المؤمنون»[1] آيات كريمة، تحدثت عن جانب من المحاورات التى دارت بين نوح - عليه السلام - وبين قومه، وعن التهم الباطلة التى وجهها الكافرون إلى نبيهم نوح - عليه السلام -، وعن الدعوات الخاشعة التى تضرع بها إلى ربه - عز وجل -.

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أى: أفلا تتقون الله - تعالى -، وتخافون عقوبته، بسبب عبادتكم لغيره... ثم حكى - سبحانه - ما رد به قوم نوح عليه فقال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ، إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ، فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾.

أى: فقال الكبراء الكافرون من قوم نوح - عليه السلام - لضعفائهم على سبيل التحذير من الاستماع إلى دعوة نبيهم: ما نوح إلا بشر مثلكم، ولكنه ابتدع هذا الدين الجديد ليكون له الفضل عليكم، ولو شاء الله - تعالى - أن يرسل رسولاً لأرسله من الملائكة...

وإن ما جاءنا به نوح ما سمعنا به من آبائنا الأولين الذين ندين بدينهم.. وإن نوحًا ما هو إلا رجل به حالة من الجنون والخبل، فانتظروا عليه إلى وقت شفائه أو موته، وعندئذ ستنتهون منه ومن دعوته التى ما سمعنا بها فى آبائنا الأولين.

(١) الآيات من ٢٣ - ٣٠.

فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحًا - عليه السلام - بأقبح مواجهة، حيث وصفوه بأنه يريد من وراء دعوته لهم السيادة عليهم، وأنه ليس نبيًّا، لأن الأنبياء - فى زعمهم - لا يكونون من البشر، وأنه قد خالف ما ألفوه عن آبائهم، ومن خالف ما كان عليه آباؤهم لا يجوز الاستماع إليه، وأنه مصاب بالجنون، وأنه عما قريب سيأخذه الموت، أو يشفى مما هو فيه. وهكذا الجهل والغرور والجحود، عندما يستولى على النفوس، يحول فى نظرهم الإصلاح إلى إفساد، والإخلاص على حب للرياسة؛ والشىء المعقول المقبول، إلى شىء غير معقول وغير مقبول، وكمال العقل ورجحانه إلى جنونه ونقصانه.

○○○

ثم يحكى القرآن الكريم أن نوحًا - عليه السلام - بعد أن استمع إلى ما قاله قومه فى شأنه من ضلالات وسفاهات، لجأ إلى ربه - عز وجل - يشكو إليه ما أصابه منهم، ويلتمس منه النصر عليهم فيقول - كما حكى القرآن عنه -: ﴿رَبِّ انْصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

أى: يا رب انصرنى عليهم، بسبب تكذيبهم لى، وتطاولهم على، وسخريتهم منى، وإصرارهم على كفرهم. وقد أجاب - سبحانه - دعاء رسوله نوح - عليه السلام - فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ - أى: برعايتنا وحفظنا...

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أى: فإذا ما اقترب وقت عقابنا لهم، وحانت ساعته، وظهرت علاماته، وهى غليان الماء الذى ينبع من فوق

التنور، وهو الشيء الذى يخبز فيه الخبز.. ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أى: فى السفينة ﴿من كلٍّ زوجين اثنين﴾ أى: فأدخل فى السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرًا وأنثى..

﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِى فى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾. أى: واصحب فى السفينة معك – أيضا – أهلك المؤمنين، إلا من بقى على الكفر منهم فاتركه ولا تصحبه معك، ولا تكلمنى فى شأن أحد من هؤلاء الكافرين، فإن العذاب سيهلكهم جميعًا.

ثم أرشد – سبحانه – نوحًا إلى ما يقوله بعد أن يستقر على السفينة فقال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ، فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

أى: فإذا ما استويت – يا نوح – أنت ومن معك من المؤمنين على السفينة، فاحمدوا الله – تعالى – حمدًا كثيرًا، حيث نجاكم من القوم الظالمين، وقولوا يا ربنا أنزلنا مكانًا مباركًا مليئاً بالخيرات، وأنت يا إلـهنا خير المنزلين لنا بفضلك وكرمك فى المكان الطيب.

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمة، قد ساقت لنا بأسلوبها البليغ الحكيم، جانبًا من قصة نوح مع قومه، نرى فيه أدب نوح فى دعوته إلى الحق، كما نرى فيه سفاهات قومه، ولجوئه إلى الله – تعالى – لكى ينصره عليهم.

○ ○ ○

وفى سورة الشعراء[1]، نجد جانبًا من هذه القصة، ولكن بأسلوب آخر، تبدو فيه حكمة سيدنا نوح - عليه السلام - ورده الحاسم، وثقته فى نصر ربه له..

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: أن قوم نوح - عليه السلام - بسبب تكذيبهم له، كأنهم قد كذبوا كل رسول بعثه الله - تعالى -، لأن رسالة الرسل جميعًا واحدة فى أصولها.

ثم حكى - سبحانه - ما قاله نوح لهم فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ، إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

أى: قال نوح - عليه السلام - لقومه بلسان صادق، وبمحبة خالصة: يا قوم اتبعوا أمرى، وأخلصوا العبادة لخالقكم، واتركوا عبادة غيره، فأنا لكم رسول أمين، ولا أطلب منكم أجرًا على دعوتى، وإنما أطلبه من الله وحده، وما دام الأمر كذلك فاسمعوا قولى واتبعوا نصيحتى. وهكذا نرى أن نوحًا - عليه السلام - قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى دعوتهم إلى الله - تعالى -، فقد حضهم على تقوى الله ثلاث مرات، بعد أن بين لهم أخوته لهم، وأمانته عندهم، وتعففه عن أخذ أجر منهم...

---

(١) الآيات من ١٠٥ - ١٢٢.

فماذا كان ردهم عليه؟ لقد كان ردهم سيئًا وقبيحًا حيث قالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾؟

أى: قالوا له بسفه وغرور: أنؤمن لك والحال أن الذين اتبعوك فقراء الناس وضعفائهم؟ وهنا يرد عليهم نوحًا - عليه السلام - ردًّا حكيمًا فيقول: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

أى: قال لهم على سبيل الاستنكار لما واجهوه به: وأى علم لى بأعمال أتباعى، إن الذى يعلم حقيقة نواياهم وأعمالهم هو الله - تعالى -، أما أنا فوظيفتى قبول أعمال الناس على حسب ظواهرها، وحسابهم بعد ذلك على الله - تعالى - وما أنا بحال من الأحوال بطارد المؤمنين الذين اتبعونى وصدقونى سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء، فأنت ترى أن نوحًا - عليه السلام - قد جمع فى رده عليهم، بين المنطق الرصين الحكيم، وبين الحزم والشجاعة والزجر الذى يخرس ألسنتهم..

لذا نراهم وقد أخرسهم المنطق القويم يلجئون إلى التهديد والوعيد فيقولون له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أى: لئن لم تكف عن دعوتك لنرجمنك بالحجارة حتى تموت. وهنا لجأ نوح إلى ربه يسأله النصر على قومه بعد أن لبث فيهم زمنًا طويلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ، فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِين، فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَن مَعَهُ فى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ، إِنَّ فى ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قال نوح ملتمسًا النصر من ربه: يا رب إن قومى قد كذبوا دعوتى، فاحكم بينى وبينهم بحكمك العادل، ونجنى ومن معى من المؤمنين من عذابك وعقابك، فأجاب الله - تعالى - دعاء نبيه نوح - عليه السلام - فأنجاه ومن معه من المؤمنين فى السفينة التى امتلأت بهم وبما هم فى حاجة إليه، ثم أغرقنا بعد انجائهم الباقين على كفرهم من قومه.

إن فى ذلك الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - من قصة نوح مع قومه لعبرة وعظة، وما كان أكثر قوم من المؤمنين، ولكن كان أكثرهم من الضالين، وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لهو العزيز الرحيم.

وهكذا ساقت لنا سورة الشعراء جانبًا من قصة نوح مع قومه، وهذا الجانب فيه ما فيه من العبر لقوم يتفكرون.

○ ○ ○

وفى القرآن الكريم سورة كاملة تسمى بسورة نوح - عليه السلام -، والمتدبر لهذه السورة الكريمة يراها تحكى لنا ما قاله نوح لقومه، وما ردوا به عليه...

كما تحكى لنا تضرعه إلى ربه، وما سلكه مع قومه فى دعوتهم إلى الحق، تارة عن طريق الترغيب، وتارة عن طريق الترهيب، وتارة عن طريق دعوتهم إلى التأمل والتفكر فى نعم الله - تعالى -، عليهم، وتارة عن طريق تذكيرهم بخلقهم..

كما تحكى لنا أنه بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولم يؤمن معه منهم إلا القليل، دعا الله - تعالى - أن يستأصل شأفتهم،

فأجاب الله - تعالى - دعوته، وأغرق أعداءه جميعًا.

وتبدأ هذه السورة بقوله - تعالى -: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يأْتِيَهُم عذَابٌ أَليمٌ، قَالَ يَا قَوْم إِنى لَكُمْ نذيرٌ مُبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوه وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُم مِنْ ذُنُوبِكم وَيُؤَخِّرْكُم إِلى أَجلٍ مُسَمًّى﴾ أى: إلى وقت معين لم تتجاوزوه - ﴿إِنَّ أَجلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعلَمُونَ﴾.

○ ○ ○

ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك، ما تضرع به نوح إلى ربه، وما وجهه إلى قومه من نصائح فيها ما فيها من الترغيب والترهيب، ومن الإرشاد الحكيم، والتوجيه السديد، فقال - تعالى -: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَومِى لَيْلاً وَنَهارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَارًا، وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُم لِتَغْفِر لَهُم جَعلُوا أَصَابِعَهم فِى آذَانِهِم وَاسْتَغْشَوْا ثِيابهُم وَأَصرُّوا واسْتَكْبرُوا اسْتِكْبَارًا....﴾.

أى: قال نوح متضرعًا إلى ربه: يا رب إنك تعلم أننى لم أقصر فى دعوة قومى إلى عبادتك، تارة بالليل وتارة بالنهار، من غير فتور ولا توان، فلم يزدهم دعائى إلى عبادتك إلا فرارًا وتباعدًا عنى..

بل إنى كلما دعوتهم إلى طاعتك لكى ينالوا مغفرتك، ما كان منهم إلا أن جعلوا أطراف أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا قولى، وإلا أن وضعوا ثيابهم على رءوسهم وأبصارهم حتى لا يرونى، وإلا أن أصروا

إصرارًا تامًّا على كفرهم وغرورهم.. فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد صورت نفورهم وعنادهم أكمل تصوير... ومع كل ذلك فإن نوحًا - عليه السلام - واصل دعوته لهم بشتى الأساليب، فقال - كما حكى القرآن عنه -: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُم جِهَارًا﴾ أى: علانية ﴿ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُم إِسْرارًا﴾ أى: خاطبت بعضهم أمام بعض تارة، وخاطبت بعضهم سرا تارة أخرى، مراعيًا ما يقتضيه حال كل واحد منهم.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّماءَ عَليكُمْ مِدْرَارًا﴾ أى: يرسل عليكم الأمطار التى أنتم فى حاجة إليها بكثرة وغزارة.

وفضلاً عن ذلك: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبنينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ - أى بساتين يانعة - ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ جارية تحت أشجار هذه البساتين.

وبعد هذا الترغيب فى الحصول على الخير متى أخلصوا عبادتهم لله - تعالى -، انتقل نوح - عليه السلام - إلى ترهيب قومه من الإصرار على الكفر والعناد فقال لهم: ﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّه وَقارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا...﴾.

أى: ما الذى حدث لكم - أيها القوم - حتى صرتم لا تخشون عظمة الله وجلاله، مع أنه - سبحانه - هو الذى خلقكم فى أطوار متعددة، نطفة فعلقة فمضغة ثم خلقًا آخر...

وبعد هذا الترغيب والترهيب والتوبيخ، أخذ فى لفت أنظارهم إلى مظاهر بديع صنع الله فى خلقه فقال لهم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا....﴾.

أى: لقد علمتم وشاهدتم بأعينكم أن الله - تعالى - وحده هو الذى خلق هذه السماوات السبع المتطابقة، وهو الذى جعل بقدرته القمر فى السماء الدنيا نورًا للأرض وما فيها، وجعل الشمس كالسراج المضىء فى تحويل الليل إلى نهار...

ثم انتقل نوح بعد كل هذه النصائح والإرشادات، إلى لفت أنظارهم إلى التأمل فى خلق أنفسهم فقال لهم: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُم فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا....﴾.

أى: والله - تعالى - بقدرته، هو الذى أوجد وأنشأ أباكم آدم من الأرض إنشاء، وجعلكم فروعًا عنه، ثم يعيدكم إلى هذه الأرض بعد موتكم لتكون قبورًا لكم، ثم يخرجكم منها يوم البعث للحساب والجزاء.

ثم ختم نوح - عليه السلام - نصائحه وإرشاداته لقومه، بلفت أنظارهم إلى نعمة الأرض التى يعيشون عليها فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا...﴾.

أى: والله - تعالى - وحده هو الذى جعل لكم بقدرته وفضله الأرض مبسوطة، لكى تتخذوا منها لأنفسكم طرقًا متسعة.

وهكذا نرى أن نوحًا - عليه السلام - قد سلك مع قومه مسالك متعددة، لكى يقنعهم بصحة وصدق ما يدعوهم إليه...

لقد دعاهم بالليل والنهار، وفى السر وفى العلانية، وبين لهم أن طاعتهم لله -تعالى- تؤدى إلى إمدادهم بـالأموال والأولاد، والجنـات والأنهار، ووبخهم على عدم خشيتهم من الله - تعالى -، وذكرهم بأطوار خلقهم، ولفت أنظارهم إلى بديع صنعه فى خلق السمـٰوات والأرض، والشمس والقمر، ونبههم إلى نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها، وإخراجهم منها، وأرشدهم إلى نعم الله - تعالى - فى جعل الأرض مبسوطة لهم..

وهكذا حاول نوح - عليه السلام - أن يصل إلى آذان قومه، وإلى عقولهم، وقلوبهم، بشتى الأساليب الحكيمة، والتوجيهات القوية، فى صبر طويل، وإرشاد دائم.

O O O

ولكن قومه كانوا قد بلغوا الغاية فى الغباء والعناد والجهالة والطغيان، لذا نرى السورة الكريمة تحكى عنه ضـراعته إلى ربـه، والتماسـه منه القضاء عليهم..

ولنستمـع فى تدبـر إلى قولـه - تعالى -: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي واتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا، وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُواعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلَالاً...﴾.

أى: قال نوح متضرعا إلى ربه: يا رب إن قومى قد عصونى، وكرهوا صحبتى، واتبعوا رؤساءهم وأغنياهم أصحاب الأمـوال والأولاد، الذين أبطرتهم النعمة، ولم يشكروك عليها، وإنهم لم يكتفوا بذلك بل مكروا بى

وبالمؤمنين معى مكرًا كبيرًا، قد بلغ النهاية القصوى فى القبح والسوء...

وكان من مظاهر مكرهم أنهم قالوا لسفلتهم: احذروا أن تتركوا عبادة آلهتكم التى وجدتم عليها آباءكم، واحذروا أن تتركوا بصفة خاصة عبادة هذه الأصنام الخمسة وهى: وُدّ، وسُواع، ويغوث، ويعوق، ونَسرا... ولم يكتفوا - أيضًا - بكل هذا المكر، بل أضافوا إليه أنهم حببوا غيرهم فى الكفر، ونفروه من عبادتك وطاعتك، فأسألك - يا رب - ألا تزيد هؤلاء الكفار الفجرة إلا ضلالًا على ضلالهم، وكفرًا على كفرهم، وأن تأخذهم بقدرتك التى لا يعجزها شيء أخذ عزيز مقتدر.

وأجاب الله - تعالى - دعاء رسوله نوح - عليه السلام - حيث قال: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصارًا...﴾.

أى: بسبب خطيئاتهم الشنيعة، أغرق الله - تعالى - الكافرين من قوم نوح، فأدخلهم فى أعقاب غرقهم نارًا يصلونها فى قبورهم إلى يوم الدين، ولم يجدوا أحدًا ينصرهم من عذاب الله - تعالى -.

ثم واصلت السورة الكريمة حكاية ما ناجى نوح به ربه فقال - تعالى -: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فاجِرًا كفَّارًا....﴾.

أى: وقال نوح - عليه السلام - متابعا حديثه مع ربه، ومناجاته له: يا رب لا تترك على الأرض من هؤلاء الكافرين واحدًا منهم يسكن دارًا،

أو يدور فى الأرض، ويتحرك عليها، لأنك - يا إلهى - إن تركتهم أضلوا عبادك المؤمنين، وفى الوقت نفسه لن يلد هؤلاء الفجار إلا فجارًا مثلهم...

ونوح - عليه السلام - لم يدع علي قومه بتلك الدعوات، إلا بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى الحق بشتى الأساليب - ولكنهم استحبوا العمى على الهدى.

ثم اختتم نوح دعاءه، واختتمت السورة عرضها لقصته، بهذا الدعاء الحار، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

أى: قال نوح - عليه السلام - فى ختام دعائه: يا رب اغفر لى، واغفر لوالدى - أيضا - ذنوبهما، واغفر كذلك لمن دخل بيتى وهو متصف بالإيمان واغفر - أيضا - يا رب ذنوب المؤمنين والمؤمنات بك إلى يوم القيامة..

ولا تزد الظالمين إلا هلاكًا وخسرانًا ودمارًا..

وهكذا اختتمت السورة الكريمة بهذا الدعاء الذى فيه طلب الرحمة والمغفرة للمؤمنين، وطلب الدمار والهلاك للكافرين.

العبر والعظات من قصة نوح
- عليه السلام -

ذكرنا فيما سبق، أن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه، قد تكررت فى القرآن الكريم فى سور متعددة، وبأساليب متنوعة، كلها فى أسمى درجات البلاغة والتأثير والإحكام...

ونريد هنا أن نذكر أهم الدروس والعبر التى نأخذها من هذه القصة فنقول:

على رأس الدروس النافعة والعظات البليغة التى نتعلمها من هذه القصة: دروس الصبر. الصبر فى أداء التكاليف التى كلفنا الله - تعالى - بها، والصبر على أذى السفهاء والجهلاء، والصبر فى مواجهة الأعداء، والصبر فى كل أمر يحمد معه الصبر..

إننا نقرأ قصة سيدنا نوح - عليه السلام - مع قومه، فنراه قد مكث فيهم ما يقرب من ألف سنة، يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده، وينهاهم عن عبادة غيره..

قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

---

(١) سورة العنكبوت: الآيتان ١٤، ١٥.

قالوا: بعث الله - تعالى - نوحا - عليه السلام - وهو فى سن الأربعين من عمره، ومكث يدعو قومه إلى وحدانية الله - تعالى - ألف سنة إلا خمسين عامًا، وعاش بعد الطوفان ستين سنة. والمقصود بذكر هذه المدة الطويلة التى قضاها نوح - عليه السلام - مع قومه، تسلية الرسول - ﷺ -، وتثبيته.

فكأن الله - تعالى - يقول لنبيه محمد - ﷺ -: لقد لبث أخوك نوح تلك الفترة الطويلة، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا عدد قليل من قومه..

قيل: كان عدد الذين آمنوا به فى تلك المدة الطويلة ثمانين، ما بين رجل وامرأة.. فعليك - أيها الرسول الكريم - أن تقتدى بأخيك نوح فى صبره وفى مطاولته لقومه. إن الصبر إذا كان لازما فى كل موطن يطلب فيه الصبر، فهو فى موطن الدعوة إلى الله - تعالى - ألزم وأوجب...

وخير الدعاة إلى الله - تعالى - هو ذلك الإنسان، الذى يصبر على إرشاد المدعوين صبرًا جميلًا، ولا يضيق بأخطائهم أو إعراضهم، فإن الصبر ضياء - كما جاء فى الحديث الشريف -

ooo

كذلك من الدروس الحكيمة التى نتعلمها من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه: أن الإنسان العاقل الحكيم هو الذى يتلقى شبهات خصمه وأكاذيبه.... بصدر رحب، وعقل متفتح، ثم يرد عليها بما يزهقها ويهدمها من قواعدها...

تدبر معى - أخى القارئ - قصة نوح - عليه السلام - مع قومه

فى مواضعها من سور القرآن الكريم، تجد أن قومه قد رموه بـأفحش التهم، وأقبح الصفات....

ومع ذلك فقد تلقى تهمهم وأكاذيبهم بثبـات وصبر، ثم رد عليهـا بما يدحضها.. ففى سورة الأعراف يقولون له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

فينفى عن نفسه هذه التهمة نفيًا قاطعًا، ثم يصف نفسه بأربع صفات كريمة... استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك عنه فيقول: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ – أى: ليس بى أى شىء من الضلال فضلا عن الضـلال نفسـه – وَلَكِنِّى رَسُـــولٌ مِنْ رَبِّ الْعَـالِمِين، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾.

وفى سورة هود نرى الملأ الذين كفروا من قـومه يقـولون لـه: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ، وَمَا نَرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، بَلْ نَظُنُكُمْ كَاذِبِينَ....﴾.

فهم قد عللوا كفرهم بما جاءهم به نبيهم نوح – عليـه السلام – بثلاث علل، أولها: أنه بشر مثلهم والبشر – فى زعمهم – لا يكون نبيًا، وثانيها: أن أتباعه من فقرائهم، وثالثها، أنه لا مزية له ولا لأتباعه عليهم بل إن نوحًا وأتباعه فى نظرهم كاذبون.

وهنا نجد نوحا – عليه السلام – قد رد عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويبطل دعاواهم، فهو يقول لهم – كما حكى القرآن عنه –: ﴿يَا قَوْمِ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى، وَآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ، أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُم لَهَا كَارِهُونَ، وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُلَاقُو رَبِّهِمْ، وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُون، وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهم أَفَلَا تَذَكَّرون، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ، وَلَا أَقُول لِلَّذِين تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهم اللَّهُ خيرًا، الله أَعْلم بِمَا فى أَنْفُسِهِم إِنِّى إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وهكذا نجد نوحًا - عليه السلام - يشرح لقومه بأسلوب مهذب حكيم حقيقة أمره، ويرد على شبهاتهم بما يزهقها، وبما يجعلهم يقفون مبهوتين أمام حججه الناصعة، وبيانه الدافع لباطلهم....

والداعية العاقل الحصيف، هو الذى يفتح صدره لنقد خصمه له، ثم يرد عليه بما يلقمه حجرًا، ويجعله فى موقف العاجز عن قرع الحجة بالحجة....

ooo

ومن أبلغ الدروس التى نتعلمها من قصة نوح مع قومه: الشجاعة فى إبداء الرأى، والغيرة على الحق، وإفهام المعترضين على دعوته إلى الله - تعالى -، أنه سيمضى فى طريقه دون أن يثنيه عن ذلك وعد أو وعيد...

استمع إليه وهو يتحدى قومه بأنه لن يتردد فى تبليغ رسالة

الله - تعالى - مهما كانت العقبات فيقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي، وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّه فَعَلى اللَّه تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرونِ﴾[1].

أى: أن نوحًا - عليه السلام - قد خاطب قومه بكل شجاعة ووضوح فقال لهم: يا قوم إن كان قد شق عليكم مقامى فيكم، وتذكيرى إياكم بآيات الله، فأجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد بى، ثم ادعوا شركاءكم وأصنامكم ليساعدوكم على محاربتى، فإنى لن ألتفت إلى كل ذلك، ولكنى ماض فى طريقى الذى أمرنى الله - تعالى - به، بدون مبالاة بمكركم، وبدون اهتمام بكيدكم.

والمتأمل فى هذا القول من نوح لقومه، يراه قد بلغ النهاية فى الشجاعة والثبات على مبدئه إنه - أولا - يصارحهم بأنه ماض فى طريقه الذى أمره الله - تعالى - بالمضى فيه.

وهو - ثانيًا - يتحداهم ويتحدى أصنامهم معهم..

وهو - ثالثا - يطالبهم بأن يتخذوا قرارهم بشأنه بدون تستر أو خفاء...

وهو - رابعًا - يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات، وأن ينفذوها بدون إبطاء، حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم.

(١) سورة يونس. الآية ٧١.

وهكذا نرى نوحًا – عليه السلام – يتحدى قومه هذا التحدى السافر المثير، حتى إنه ليغريهم بنفسه، ويفتح لهم الطريق لإيذائه وإهلاكه – إن استطاعوا –، ويستخف بكل ما لديهم من قوة..

وما لجأ – عليه السلام – إلى هذا التحدى الواضح المثير، إلا لأنه كان واثقًا من نصر الله – تعالى – له، ومعتمدًا على حفظه ورعايته، التى تتضاءل أمامها كل قوة، وتتهاوى إزاءها كل سطوة..

وهكذا نرى القرآن الكريم يسوق للدعاة إلى الله – تعالى – فى كل زمان ومكان، تلك المواقف المشرقة لرسل الله – تعالى –، لكى يقتدوا بهم فى شجاعتهم، وفى اعتمادهم على الله عز وجل – وحده، وفى ثباتهم أمام الباطل، مهما بلغت قوته، واشتد جبروته..

ومتى فعلوا ذلك، كانت العاقبة لهم، وكان النصر حليفهم، لأن الله – تعالى – قد تعهد أن ينصر من ينصره.

O O O

كذلك من الدروس النافعة التى نتعلمها من قصة نوح – عليه السلام – أن الإنسان العاقل، والمرشد الحكيم، هو الذى يسوق لغيره النصائح والهدايات، بأساليب متنوعة، تارة عن طريق الترغيب والترهيب، وأخرى عن طريق الدعوة إلى التأمل والتدبر فى عجائب هذا الكون، وأحيانا عن طريق بيان مظاهر نعم الله على خلقه.. انظر إلى نوح – عليه السلام – إنه دعا قومه إلى إخلاص العبادة لله – تعالى – ليلا ونهارًا، وسرا وجهرًا.

ولم يسق لهم دعوته بأسلوب واحد، بل نراه فى سورة «نوح» - مثلا -، يرشدهم إلى أن استغفارهم لربهم، وطاعتهم له، وخوفهم منه، ونبذهم لعبادة تلك الأصنام، كل ذلك سيؤدى إلى نزول المطر على أرضهم فتتحول من جدباء إلى خضراء، كما يؤدى إلى أن يمدهم - سبحانه - بزينتى الحياة الدنيا، وهما الأموال والأولاد، وبالبساتين والزروع اليانعة.

وعندما يجدهم لم ينتفعوا بالترغيب، يلجأ إلى الترهيب والزجر والتوبيخ، منكرًا عليه استهتارهم واستخفافهم بما يدعوهم إليه.

ثم بعد هذا الترغيب والترهيب والتوبيخ، يأخذ فى تذكيرهم بعجائب هذا الكون الذى أحسن الخالق - عز وجل - خلقه وصنعه..

فيلفت أنظارهم إلى بديع صنعه - عز وجل - فى خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، وينبههم إلى نشأتهم من الأرض، وعودتهم إليها، وإخراجهم منها للحساب والجزاء..

ونرى كل هذه الأساليب المتنوعة فى الدعوة إلى الله، مجموعة فى آيات واحدة ألا وهى قوله - سبحانه -: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيكُم مِدْرَارًا، ويُمددكُمْ بأَمْوال وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا، مَا لَكُم لَا تَرجُونَ لله وقَارًا، وقَدْ خَلَقكُمْ أَطْوَارًا، أَلَمْ تَرَوا كيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَواتٍ طِبَاقًا، وَجَعَل الْقَمر فِيهن نُورًا وَجَعَل الشَّمْسَ سِرَاجًا، وَ الله أَنْبَتكُمْ مِنَ الْأَرْض نَباتًا، ثمَّ يُعيدُكُم فِيهَا ويخرجكُمْ إِخرَاجًا، وَالله جعل لكمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا، لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

وهكذا نرى أن نوحًا - عليه السلام - حاول أن يصل إلى آذان قومه، وإلى عقولهم وقلوبهم، بشتى الأساليب الحكيمة، والتوجيهات القوية، فى صبر طويل، وإرشاد دائم.

وما أحوج الدعاة والمرشدين إلى الانتفاع بهذه الأساليب فى دعوتهم إلى الحق.

○ ○ ○

ومن أبلغ وأَجَلِّ الدروس التى نأخذها من قصة نوح - عليه السلام -: عفَافُه عما فى أيدى قومه، وعدم التطلع إلى ما فى أيديهم من أموال، واستخفافه بكل ما يملكون من حطام الدنيا، وإيثاره ما عند الله - تعالى - على ما عندهم، ومصارحته لهم بأنه لا يريد أجرًا منهم على ما يدعوهم إليه، مع أن ما يدعوهم إليه فيه سعادتهم وعزتهم وقوتهم وغناهم.

وهو لا يتوانى أبدًا فى تذكيرهم بهذه الحقيقة، حتى لا يتوهم متوهم منهم أن نوحًا - عليه السلام - إنما يريد من وراء دعوته لهم المال أو الجاه أو غيرهما. انظر إليه تراه فى سورة «يونس» بعد أن يتحداهم ويتحدى شركاءهم، يقول لهم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُم فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنَ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمينِ﴾ [الآية ٧٢]

أى: فإن أعرضتم - أيها الناس - عن قولى وعن تذكيرى إياكم بآيات الله - تعالى - بعد وقوفكم على أمرى وعلى حقيقة حالى، فأنتم وشأنكم، فإنى لم أسألكم أجرًا على دعوتكم إلى الحق والخير، وإنما ألتمس

الأجر من الله - تعالى - وحده، فهو - سبحانه - الذى يثيبنى على قولى وعملى، وهو الذى يعطينى من الخير ما يغنينى عن أجركم، وهو - سبحانه - الذى أمرنى أن أكون من المنقادين لأمره، المتبعين لهديه، المستسلمين لقضائه وقدره.

ثم انظر إليه فى سورة «هود» يكرر لهم هذا المعنى، وهو استغناؤه عنهم والتماس الأجر من الله - تعالى - وحده، فيقول: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً، إِنْ أجرىَ إلاَّ عَلىَ الله﴾ [الآية ٢٩]

أى: لا أطلب منكم مالاً فى مقابل تبليغ ما أمرنى الله بتبليغه إليكم، وإنما أطلب الأجر والرزق من الله - تعالى - وحده.

وفى سورة الشعراء يؤكد لهم هذا المعنى للمرة الثالثة فيقول: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إلا على رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية١٠٩]

أى: إنى لا أسألكم على هذا النصح والإرشاد من أجر دنيوى، إن أجرى فيما أدعوكم إليه إلا على رب العالمين الذى خلقنى وخلقكم، ورزقنى ورزقكم. والحق، أن هذا الاستعفاف عما فى أيدى الناس، والترفع عن عطاياهم، والتماس الأجر والعطاء من الله - تعالى - وحده، هو خير سلاح للداعية القوى الأمين لكى يبلغ رسالة الله دون أن يخشى أحدا سواه، وذلك لأن الحرص على أخذ أجر من الناس على الدعوة إلى الحق، يذل الرقاب، ويخرس الألسنة عن النطق بما هو خير وصواب.

إن المحبة الصادقة، أكثر ما تكون عمقًا وقوة ووضوحًا، بين الآباء

والأبناء ولكن هذه المحبة لا وزن لها عند الله - تعالى - ولا أثر لها فى نفع المحبوب، إلا إذا كان من الذين أخلصوا عبادتهم لله الواحد القهار.

ولقد صور القرآن الكريم هذا المعنى بأسلوبه البليغ المؤثر أكمل تصوير فى قوله - تعالى - ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ - أى: كانت السفينة التى حملت نوحًا ومن معه من المؤمنين، تجرى بهم فى الماء الذى تعلوه الأمواج حتى لكأنها الجبال.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾

أى: وقبل أن يشتد الطوفان وترتفع أمواجه رأى نوح ابنه كنعان فى مكان منعزل، فقال له بعاطفة الأبوة الناصحة الملهوفة، يا بنى اركب معنا فى السفينة ولا تكن مع القوم الكافرين، الذين سيلفهم الموج تحت طياته بعد وقت قريب.

ولكن هذه النصيحة الغالية من الأب الحزين على مصير ابنه، لم تجد أذنا واعية من هذا الابن العاق المغرور، بل رد على أبيه بقوله: ﴿سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ﴾. وهنا يرد عليه أبوه الرد الأخير وقلبه يتفطر ألمًا فيقول له: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة ما دار بين نوح - عليه السلام - وبين ابنه من محاورات فى تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة، التى يبذل فيها

كل أب ما يستطيع بذله من جهود لنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم.

وبعاطفة الأبوة الحانية الصادقة، وقف نوح يتضرع إلى ربه فيقول: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾.

أى: يارب إن ابنى «كنعان» قطعة منى فارحمه برحمتك، وأنت قد وعدتنى بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم، لكن فى هذا الموقف العصيب أطمع فى عفوك عنه، وفى رحمتك له.

ولم يصرح نوح - عليه السلام - بمطلوبه، وهو الرحمة والمغفرة لابنه، تأدبا مع الله - تعالى - وحياء منه، واعتقادًا منه - عليه السلام - بأنه سبحانه - عليم بما يريده، وخبير بما يجول فى نفسه وهذا لون من الأدب السامى الذى سلكه الأنبياء مع خالقهم عند مخاطبتهم له - سبحانه -، ومن أولى منهم بذلك؟!!.

وهنا رد الله - تعالى - عليه بهذا الرد الحاسم: ﴿يَا نُوحُ إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّه عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

أى: يانوح إن ابنك هذا ليس من أهلك، لأن مدار الأهلية على القرابة الدينية، وقد انقطعت بالكفر، فلا علاقة بين مسلم وكافر.

أو المعنى: ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم، بل هو ممن سبق عليه القول بالعذاب بسبب إصراره على الكفر.

فالمراد نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده، وليس المراد نفى أن يكون من صلبه، لأن ظاهر الآية يدل على أنه كان ابنه من صلبه، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط لخلوه من الدليل.

وجملته ﴿إِنَّه عَمَلٌ غَيْرُ صالِح﴾ تعليل لنفى الأهلية. أى: إن ابنك كنعان هذا ليس من أهلك المؤمنين، لأنه لم يعمل فى دنياه عملاً صالحًا، بل أصر على كفره وضلاله، حتى مات على ذلك، دون أن يستمع إلى نصيحتك.

وهكذا نرى أن القرابة والمحبة التى بين الآباء والأبناء، لاوزن لها عند الله تعالى - إلا إذا كان معها الإيمان والعمل الصالح.

ولقد أكد القرآن هذا المعنى فى آيات كثيرة منها قوله تعالى -: ﴿يَأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربكُمْ واخْشَوا يَوْمًا لا يَجزِى وَالدٌ عَنْ وَلَدِهِ، وَلاَ مَولودٌ هُوَ جازٍ عَنْ وَالِده شَيْئًا﴾.

والمرشد الفطن المخلص هو الذى يغرس فى نفوس الناس، هذا المعنى بشتى الأساليب الحكيمة، والتوجيهات القوية، حتى يكون اعتمادهم على أعمالهم لا على أنسابهم.

○ ○ ○

ومن أهم الدروس التى يجب علينا أن ننتفع بها من قصة نوح - عليه السلام -، أن القرآن الكريم فى سرده لقصص الأنبياء مع أقوامهم، يهتم بذكر اللباب والنافع من الأمور، ويهمل ذكر ما لافائدة من ذكره.

فمثلاً فى قصة نوح - عليه السلام - التى نتحدث عنها هنا، لم يتعرض القرآن لبيان المدة التى قضاها نوح فى صنع السفينة، ولا لبيان طولها وعرضها وارتفاعها، ولا لتفصيل الأنواع التى حملها معه فيها، ولا لبيان المدة التى قضاها بداخلها، ولا لبيان الزمان الذى استغرقه

الطوفان فوق الأرض، ولا لبيان المكان الذى هبط فيه نوح ومن معه بعد أن استوت السفينة على الجودى - وهو جبل بشمال العراق بالقرب من مدينة الموصل، وقيل هو جبل بالشام - وما ورد بشأن السفينة وطولها وعرضها، وصفات المحمولين فيها.. من أقـوال وأخبار، أكـثر ذلك من الإسرائيليات التى لا يؤيدها نقل صحيح أو عقل سليم.

والمتدبر فى قصة نوح - عليه السلام - كما وردت فى القرآن، يرى أن القرآن الكريم، قد اهتم ببيان الأساليب الحكيمة التى سلكها نوح مع قومه وهو يدعوهم إلى الحق وببيان الشبهات التى أثارها قومه، وكيف رد عليها ردًّا يزهق باطلها. وببيان أن الذين عارضوا دعـوته، كـانوا من أصحاب الجاه والسلطان، الذين عبر عنهم أكثر من مرة بقوله: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: الآية ٦٠]

وفى آية ثانيـة ﴿فَقَالَ الْمَـلأُ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنَ قَومِـهِ، مَا نَـراكَ إِلَّا بَشَرًا مِثلنَا، وَمَا نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾
[سورة هود: الآية ٢٧]

وفى آية ثالثة: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَومِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة المؤمنون الآية ٢٤]

كما نرى القرآن الكريم قد ذكر لنا فى أكثر من موضع تلك الدعوات الخاشعات، التى تضرع بها نوح إلى ربه، بعد أن طال مكثه فى قومه، وبعد أن يئس من إيمانهم. ومن ذلك قوله - تعالى - حكاية عنه: ﴿وَنوحًا إِذْ نَـادَى مِنْ قَبلُ فَـاسْتَجَبْنَا لَـهُ، فَنجيناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَـرْبِ الْعَظِيم،

وَنَصرنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُم كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهم أَجْمَعِينَ﴾

[سورة الأنبياء: الآيتان ٧٦، ٧٧]

وقوله - سبحانه -: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾

[المؤمنون: الآية ٢٦]

وقوله - تعالى -: ﴿قَال رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ، فَافْتَح بَيْنِى وَبيْنَهمْ فَتحًا وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِى مِنَ الْمؤْمِنينَ﴾

[الشعراء الآيتان ١١٧ - ١١٨]

وقوله - عز وجل: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر﴾

[القمر: الآية ١٠]

والداعية العاقل، هو الذى يتأسى بهدى القرآن الكريم فى الدعوة إلى الحق، فيبرز فى دعوته ما ينفع الناس، ويكرر لهم ذلك، ويهمل الحديث فيما لا ينفع أو يفيد.

(نسأل الله - تعالى - الهداية والتوفيق)

فهرس

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبي العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور
الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان

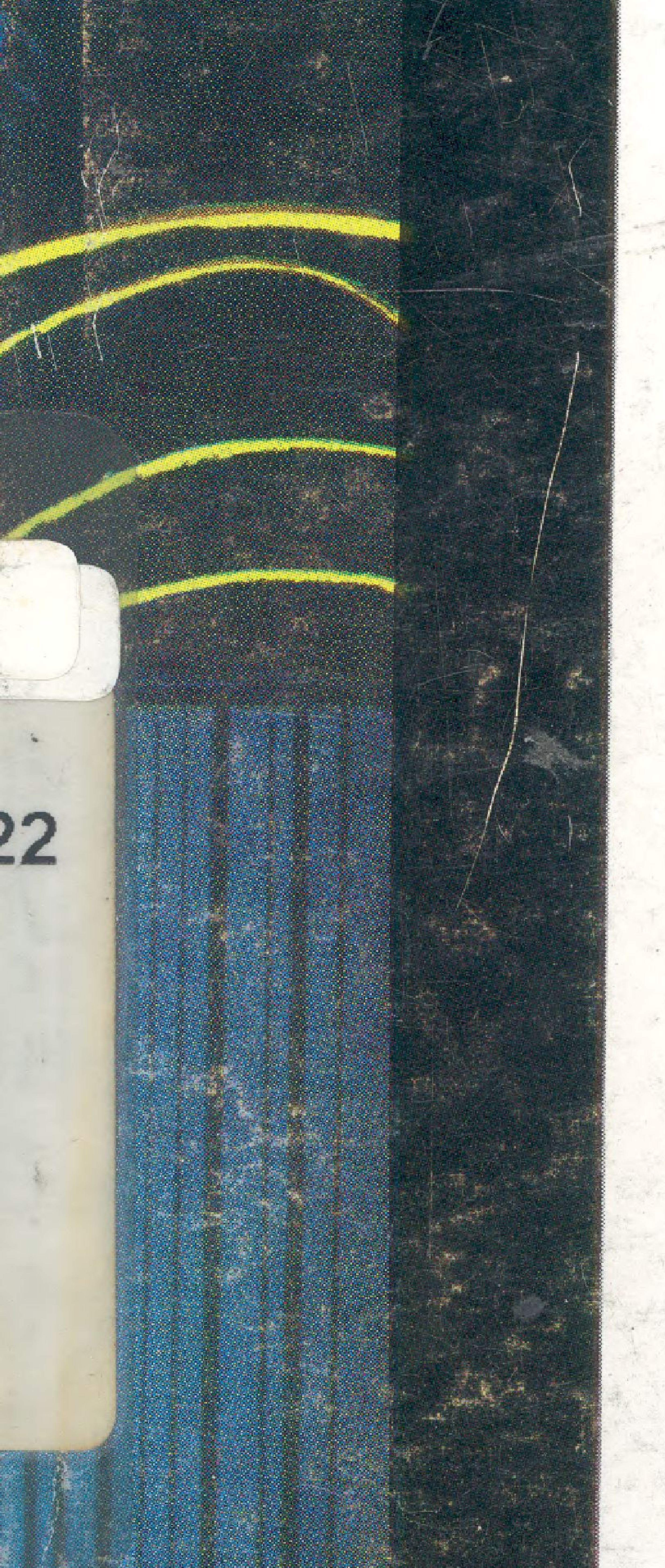
طاغور — د . جميل جبر
طرائف من التاريخ — مصطفى الشهابى
شاعر الشعب — د . سامى الدهان
قصص الحب العربية — د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات — محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء — إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء — عباس خضر
أبو زيد الهلالى — محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى — خليل شيبوب
ليلى العفيفة — عادل الغضبان
نساء محاربات — صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى — رجاء النقاش
جابر بن حيان — محمد محمد فياض
الصديقة بنت الصديق — عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور — د . على حسنى الخربوطلى
غادة رشيد — على الجارم
الأحلام والرؤى — د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق — د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد — محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز — أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء — عبد الستار فراج

تيمورلنك	محمد محمد فياض
شيخ التكية	محمد عبده عزام
المدينة المسحورة	سيد قطب
نحن أولاد الغجر	أنيس منصور
هؤلاء عرفتهم	عباس خضر
الحب والكلمات	إسماعيل النقيب
رمضانيات	مصطفى عبد الرحمن
وفى أنفسكم أفلا تبصرون	د. رشاد الطوبى
تنمية عادة القراءة عند الأطفال	يعقوب الشارونى
أطفالنا فى عيون الشعراء	أحمد سويلم
معى (٢ جـ)	د. شوقى ضيف
توفيق الحكيم عملاق الأدب	د. محمد الدالى
حصاة فى بحر هائج	د. سيد حامد النساج
البرامج التربوية للطفل	أميمة جادو
فمنهم من يمشى على بطنه	د. رشاد الطوبى
القصة فى الستينات	د. عبد الحميد ابراهيم
شوقى ضيف رائد الدراسات الأدبية	د. عبد العزيز الدسوقى
سيناء فى مواجهة الممارسات الإسرائيلية	قدرى يونس
قناة السويس	جورج حليم

رقم الإيداع	١٩٩٦/١٣٣٢٢	
الترقيم الدولى	977-02-5347-2	ISBN

٢/٩٦/٢٠٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



إن المتدبر للقرآن الكريم يرى أن القصة تشغل جانبًا كبيرًا من آياته وسوره، ولاسيما السور المكية التي كان نزولها على النبي ﷺ قبل هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

ولقصص القرآن الكريم أهداف سامية، ومقاصد عالية، وخصائص فريدة، تشهد بأن هذا القرآن من عند الله.





دار المعارف